دروس (٩/ ...-...)

سورة رقم ٥٦

تفسير سورة الواقعة

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥)
فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ
(٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ
مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ
عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ
(٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤)
إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)
وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا
الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن
شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ
خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ
(٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣)
أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ
الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي
تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ
(٧٤) ۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)
لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ
(٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ
مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾

الدرس الأول

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ عِكْرِمَة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ شبتَ؟ قَالَ: «شَيَّبتني هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ بِسَنَدِهِ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ طَارِقٍ الْمِصْرِيِّ: حَدَّثَنَا السَّرِّي بْنُ يَحْيَىٰ الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ أَبِي شُجَاعٍ، عَنْ أَبِي ظَبْيَةَ قَالَ: مَرِضَ عَبْدُ اللهِ مَرَضَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَعَادَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: مَا تَشْتَكِي؟ قَالَ: ذُنُوبِي. قَالَ: فَمَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: رَحْمَةَ رَبِّي. قَالَ أَلَا آمُرُ لَكَ بِطَبِيبٍ؟ قَالَ: الطَّبِيبُ أَمْرَضَنِي. قَالَ: أَلَا آمُرُ لَكَ بِعَطَاءٍ؟ قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. قَالَ: يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: أَتَخْشَىٰ عَلَىٰ بَنَاتِي الْفَقْرَ؟ إِنِّي أَمَرْتُ بَنَاتِي أَنْ يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا».

ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَسَاكِرَ: كَذَا قَالَ وَالصَّوَابُ: عَنْ (شُجَاعٍ)، كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ عَنِ السَّرِّي. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنِي السَّرِّي بْنُ يَحْيَىٰ أَنَّ شُجَاعًا حَدَّثَه، عَنْ أَبِي ظَبْيَة، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا». فَكَانَ أَبُو ظَبْيَةَ لَا يَدَعُهَا.

وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو يَعْلَىٰ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُنِيب، عَنِ السَّرِّي بْنِ يَحْيَىٰ، عَنْ شُجَاعٍ، عَنْ أَبِي ظَبْيَة، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، بِهِ.

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي إِسْرَائِيلَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُنِيب الْعَدَنِيِّ، عَنِ السَّرِّي بْنِ يَحْيَىٰ، عَنْ أَبِي ظَبْيَةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا». لَمْ يَذْكُرْ فِي سَنَدِهِ (شُجَاعًا). قَالَ: وَقَدْ أَمَرْتُ بَنَاتِي أَنْ يَقْرَأْنَهَا كُلَّ لَيْلَةٍ.

وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ حَجَّاجِ بْنِ نُصَيْرٍ وَعُثْمَانَ بْنِ الْيَمَانِ، عَنِ السَّرِيِّ بْنِ يَحْيَىٰ، عَنْ شُجَاعٍ، عَنْ أَبِي فَاطِمَةَ قَالَ: مَرِضَ عَبْدُ اللهِ، فَأَتَاهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ يَعُودُهُ، فذكر الحديث بِطُولِهِ. قَالَ عُثْمَانُ بْنُ الْيَمَانِ: كَانَ أَبُو فَاطِمَةَ هٰذا مَوْلًى لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، وَيَحْيَىٰ بْنُ آدَمَ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ؛ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كَنَحْوٍ مِنْ صَلَاتِكُمُ الَّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ. كَانَتْ صَلَاتُهُ أَخَفَّ مِنْ صَلَاتِكُمْ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ «الْوَاقِعَةَ» وَنَحْوَهَا مِنَ السُّوَرِ.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

اللّٰهمَّ نسألك علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، وقلبًا خاشعًا، ودعاء مسموعًا. ربنا لا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، واحملنا علىٰ الهدىٰ والصلاح، وقنا شر أنفسنا والشيطان يا رب العالمين.

أما بعد؛ فهٰذه سورة الواقعة، وكطريقة ابن كثير عادةً يذكر في صدر تفسير كل سورة ما ورد من الأحاديث والآثار، إما في فضل السورة، وإما في سنة قراءتها في الصلاة، أو في غير الصلاة.

وقد ذكر لك هنا حديث ابن مسعود وقصة ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي هٰذا الحديث مسائل:

الأولىٰ: أن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان في حياته يطلب عطاءً من عثمان يناسب مقامه، وعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يكن يعطيه ذلك العطاء، حتىٰ إذا قُربت وفاته أو صار عند المرض قال له عثمان: آمرُ لك بعطاء؟. قال: لا حاجة لي فيه. حمله أهل العلم علىٰ أن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان طلبه في حال صحّته فمُنِع منه، فلما كان في حال مرضه قال: لا حاجة لي فيه.

وابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من السابقين الأولين، وممّن أسلم قديمًا، وممن حضر بدرًا والمشاهد بعدها، فله حقّ البدريين في ذلك، وهٰذا سبب امتناع ابن مسعود عن أن يعطىٰ العطاء، وأن يكون له أو لبناته من بعده، أنه لم يعطه في حال صحته، ولذلك تنزّه عنه في حال مرضه.

المسألة الثانية: أن الفاقة التي ذُكِرت في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إن صح إسناده في قوله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ**» المقصود بها هنا الفقر.

والفقر نوعان: فقرٌ في القلب، وفقرٌ في اليدين، وظاهر الحديث يشمل الأمرين معًا؛ فاقة المال وفاقة القلب.

ولا شك أن في سورة الواقعة من المعاني ما يجعل القلب في غناة عن الالتفات إلىٰ الدنيا، وفي رغبة إلىٰ النظر إلىٰ الآخرة، لأن فيها تقسيم الناس إلىٰ ثلاث فئات: السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. ومن تأمل هٰذه فإنه -ولا شك- سيكون غني القلب، وسيبتعد عن التعلق بما ليس له، فهٰذا وجهٌ في معنىٰ قوله: «لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ».

وأيضًا السورة اشتملت علىٰ أن الله جل وعلا هو الذي يَسَّر للعباد رِزْقَهم، وسخَّر لهم ما ليس إليهم، وذلك في قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾، ثم في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وفي قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾، وفي قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ إلىٰ آخر الآيات.

فهٰذه من تأملها حقًّا فتحت لقلبه أعظم أنواع التوكل علىٰ الله جل وعلا، وفي التوكل علىٰ الرب ﷻ الكفاية، فمن توكل علىٰ الله كفاه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. فهو ﷻ كافيه، وهو ولي أمره، وهو الذي يسدي له الخير، ويفتح له أبواب الخيرات من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾[فاطر:٢].

فمن صَدَقَ التوكلَ علىٰ الله جل وعلا فإن الله ﷻ يفيض عليه الخيرات من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم. ولهٰذا فإن في هٰذه السورة الآيات التي تطرد سوء الظن بالله جل وعلا وتعظم صدق التوكل علىٰ الله جل وعلا في أن يسخر للعبد الدنيا ويرزقه، ويفيض عليه مما في يدي الرَّحمٰن جل وعلا.

لذلك من أيقن بهٰذه السورة وهو صدق اليقين لا مجرد التلاوة، هٰذا يُرجىٰ له أن يفتح له هٰذا الباب، وهو ألا تصيبه فاقة في ماله، يعني من حيث المال، وألا تصبه فاقة في قلبه. ولهٰذا التوكل سبب، وهو أن يكرر قراءة هٰذه السورة، لأنه ليس كل الناس يدرك الأمر من أول قراءة، فتكريرها كل ليلة يرسخ هٰذه الأصول العظيمة، والعقيدة في الله جل وعلا فيما أعد الله جل وعلا لعباده في الآخرة، وفيما أعد الله جل وعلا لعباده وسخر لهم في الدنيا.

إذن هٰذه المسألة هي معنىٰ قوله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ». ولهٰذا أمر ابن مسعود رضي الله عنه بناته أن يقرأنها كل ليلة لمناسبة ضعف حاله من الجهة المادية واحتياج بناته لما جرت العادة بالاحتياج إليه.

وأما الحديث الآخر، وهو أن النبي ﷺ كان يقرأ سورة الواقعة في الفجر، فهٰذا ضمن السنة المشهورة، وهو أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ بطوال المفصل في الفجر، ويقرأ بأواسطه في العشاء، ويقرأ بقصاره في المغرب، وهٰذه سنة ينبغي المحافظة عليها وألا تترك.

ومن الأئمة من يقرأ القرآن طول السنة، يعني كأنه يقرأه في التراويح، يقرأ ثم يقف، ويكمل المغرب، ثم يقف ويكمل العشاء، ثم يكمل الفجر. وهٰذا مع عدم وروده وعدم فعله عليه الصلاة والسلام له فإنه يفوِّت سنة القراءة في هٰذه الصلوات الثلاثة. والنبي عليه الصلاة والسلام كانت غالب قراءته في المغرب والعشاء والفجر علىٰ ما ذكرت لكم، وربما قرأ بغيرها، ربما قرأ في المغرب بالأعراف، وربما قرأ في الفجر بالمؤمنون وبغيرها من السور الطويلة؛ لكن السنة الماضية السنة التي جاءت الأحاديث بأنه عليه الصلاة والسلام كان غالبًا ما يقرأ بها، وأمر بذلك في الفجر وفي العشاء وفي المغرب من أن يقرأ من المفصل.

وللمفصل أثره علىٰ الناس لقصر آياته وسهولة فهم معناه، ولما فيه من الوعد والوعيد والتذكير بالآخرة، ولأجل حسن وقعه علىٰ النفس أيضًا في حال عامة الناس، فالمفصل له شأن عظيم. والمحافظة علىٰ السنة في هٰذه المسائل أمر مطلوب.

والمفصل – كما ذكرت لكم– يبتدئ من سورة ق، أو من الحجرات، إلىٰ آخر القرآن، طواله من ق أو من الحجرات إلىٰ آخر سورة عمّ، وأواسطه من سورة عمّ إلىٰ آخر سورة الليل، وقصاره من سورة الضحىٰ إلىٰ آخر سورة الناس.

أما قوله عليه الصلاة والسلام: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ» إلىٰ آخره، فمعنىٰ التشييب الذي ذُكِرَ لِمَا فِيهَا من ذكر حال أهل الجنة وحال أهل النار، والوعد والوعيد الشديد في هٰذه السور.

ففي آخر سورة هود ذِكر أهل النار وأهل الجنة وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ إلىٰ آخر الآيات.

ويدخل في ذلك أيضا القصص التي في سورة هود كما ذكره طائفة؛ لكن المقصود الذي يجمع بين هٰذه السور [الخمس] التي فيها ذكر المصير بوعد ووعيد، ففيه شدة وفيه وقع عظيم علىٰ القلب، كذلك

سورة الواقعة كذلك وسورة عم يتساءلون ونحو ذلك من السور.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

الْوَاقِعَةُ: مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتَحَقُّقِ كَوْنِهَا وَوُجُودِهَا، كَمَا قَالَ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الْحَاقَّةِ].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ أَيْ: لَيْسَ لِوُقُوعِهَا إِذَا أَرَادَ اللهُ كَوْنَهَا صَارِفٌ يَصْرِفُهَا، وَلَا دَافِعٌ يَدْفَعُهَا، كَمَا قَالَ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الشُّورَىٰ:٤٧]، وَقَالَ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ [الْمَعَارِجِ]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣﴾ [الْأَنْعَامِ].

وَمَعْنَىٰ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ -كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ-: لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَيْسَ فِيهَا مثنوية ولا ارْتِدَادٌ وَلَا رَجْعَةٌ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْكَاذِبَةُ: مَصْدَرٌ كَالْعَاقِبَةِ وَالْعَافِيَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أَيْ: تَخْفِضُ أَقْوَامًا إِلَىٰ أَسْفَلِ سَافِلِينَ إِلَى الْجَحِيمِ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَعِزَّاءَ. وَتَرْفَعُ آخَرِينَ إِلَىٰ أَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ، إِلَىٰ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وُضَعَاءَ. وَهَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمَا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُصْعَبٍ الْمَعْنَىٰ، حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرُّؤَاسِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ تَخْفِضُ أُنَاسًا وَتَرْفَعُ آخَرِينَ.

وَقَالَ عُبَيْدُ اللهِ الْعَتَكِيُّ، عَنْ عثمان بن سراقة، ابن خالة عمر بن الْخَطَّابِ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ قَالَ: السَّاعَةُ خَفَضَتْ أَعْدَاءَ اللهِ إِلَىٰ النَّارِ، وَرَفَعَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: تَخْفِضُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرْتَفِعِينَ، وَتَرْفَعُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مَخْفُوضِينَ.

وَقَالَ السُّدِّيّ: خَفَضَتِ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَرَفَعَتِ الْمُتَوَاضِعِينَ.

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أَسْمَعَتِ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: خَفَضَتْ فَأَسْمَعَتِ الْأَدْنَى، وَرَفَعَتْ فَأَسْمَعَتِ الْأَقْصَى. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أَيْ: حُرِّكَتْ تَحْرِيكًا فَاهْتَزَّتْ وَاضْطَرَبَتْ بِطُولِهَا وَعَرْضِهَا. وَلِهَذا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أَيْ: زُلْزِلَتْ زِلْزَالًا شَدِيدًا.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: تُرَجُّ بِمَا فِيهَا كَرَجِّ الْغِرْبَالِ بِمَا فِيهِ.

وَهَذه كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزَّلْزَلَة]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الْحَجّ].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أَيْ: فُتِّتَتْ فَتًّا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وعِكْرِمَة، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: صَارَتِ الْجِبَالُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [الْمُزَّمِّل].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾، قَالَ أَبُو إِسْحَاق، عَنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ كرهج الْغُبَارِ يَسْطَعُ ثُمَّ يَذْهَبُ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ.

وَقَالَ العَوْفِيّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾: الْهَبَاءُ الَّذِي يَطِيرُ مِنَ النَّارِ، إِذَا اضْطَرَمَتْ يَطِيرُ مِنْهُ الشَّرَرُ، فَإِذَا وَقَعَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الْمُنْبَثُّ: الَّذِي ذَرَّتْهُ الرِّيحُ وَبَثَّتْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ كَيَبِيسِ الشَّجَرِ الَّذِي تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ.

وَهَذه الْآيَةُ كَأَخَوَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَى زَوَالِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَذَهَابِهَا وَتَسْيِيرِهَا وَنَسْفِهَا -أَيْ قَلْعِهَا- وَصَيْرُورَتِهَا كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ.

قال جل وعلا: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾) ذكرنا لكم مرارًا أن البسملة آية في صدر جميع سور القرآن خلا سورة براءة؛ أي سورة التوبة، وليست في العد من السور، فهي آية للفصل ما بين السورة والسورة. فهي إذن آية من القرآن، ولكنها لا تدخل في العد، ولهذا لم يكن النبي ﷺ يجهر بها في القراءته للسورة أو للفاتحة أو في السورة على القول المشهور.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ سُميت السورة بالواقعة، وقد ذكرنا أيضًا أن تسمية السور اجتهادي وليس توقيفيًّا،

ولهٰذا تجد أن لبعض السور أكثر من اسم، فيكون لها اسمان، وثلاثة أسماء ونحو ذلك، لأن الأسماء اجتهادية، وقد تكون التسمية من النبي ﷺ كما في هٰذه السورة، وقد تكون التسمية من غيره عليه الصلاة والسلام.

والواقعة من أسماء يوم القيامة، وأسماء يوم القيامة متعددة بتعدد الصفات. ومن قاعدة العرب في لغاتها أن كثرة الأسماء تدل علىٰ عظم شأن المسمىٰ، وذلك لعظم صفاته التي توجب تعدد الأسماء. فذلك للقيامة أسماء كثيرة، وللنار أسماء كثيرة، وللجنة أسماء كثيرة، ولرب العالمين له أسماء كثيرة منها تسعة وتسعون اسمًا كما قال ﷺ: « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ »، ولنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أسماء كثيرة.

فتعدد أسماء القيامة لأجل تعدد الصفات الواقعة من أسمائها باعتبار أنها ولا بد واقعة كأنها وقعت وانقضت، وهي لم تأت بعد، والعرب في لغاتها ولسانها الكريم تعبر عن الشيء الذي لم يقع بالماضي لأجل التأكيد علىٰ تحقق وقوعه، فيوم القيامة واقع، والساعة واقعة، أي واقعةٌ ولا بد، لهٰذا قال جل وعلا بعده: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ ﴾.

قال جل وعلا: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ (إذا) هٰذه شرطية غير جازمة، ولها جواب، وجوابها سيأتي بعد الايات التي قرأنا.

و﴿الْوَاقِعَةُ ﴾ من حيث الإعراب فاعل، لكن الواقعة هنا في الحقيقة أُسند إليها الوقوع، وإلا فالمُوقِع حقيقةً هو رب العالمين، وهٰذا مما يُقرِّر مذهب أهل السنة والجماعة في أن إسناد الفعل إلىٰ فاعله إنما هو علىٰ وجه القيام به والإضافة إليه، وإلا فرب العالمين هو الذي أوقع هٰذا الشيء.

الأشياء قسمان:

القسم الأول: أشياء مخلوقة تعقل وتفعل، فهٰذه يضاف إليها الفعل حقيقة، وتكون فعلت حقيقةً.

والقسم الثاني: أشياء لا تفعل بنفسها وإنما هي مفعول بها، فهٰذه أيضًا يضاف إليها الفعل، وتكون فاعلًا، والمقصود قيام الشيء بها.

إذن الفاعل في كلا الأمرين هو حقيقة وليس مجازًا، والمدَّعُون للمجاز في مثل هٰذا يقولون: هٰذا مجاز عقلي، لأنه معلوم أن الواقعة ليوم القيامة إنما هي مفعول بها، يعني أن الله جل وعلا هو الذي يوقعها وليست هي تقع من ذات نفسها، لأنه ليس ثَمَّ شيء اسمه واقعة، وإنما مجموع ما يحصل يوم

القيامة.

هٰذا هو الواقع يوم القيامة في الساعة، وهٰذا كثير في القرآن، فهٰذا علىٰ الصحيح ليس مجازًا عقليًّا، وإنما هو علىٰ اختلاف إضافة الفعل إلىٰ فاعله، فإذا كان الفاعل مما يُفعَل من المخلوق الذي يفعل وله اختيار أراده، فإنه يقال: هو الفاعل حقيقة. يعني ليس إضافة وليس فعلًا عند الفعل أو قام به الفعل عند الالتقاء كما يقول الأشاعرة، وإنما هو فاعل حقيقة. وأما ما هو مثل الجمادات أو الأمور المعنوية فنقول: فاعل أيضًا، لأن الله جل وعلا نسب الفعل إليها، لكن هٰذا من جهة الإضافة إليها لقيام الفعل بها.

قال: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ ﴾ وهٰذا ليس جوابًا للشرط، وإنما الجواب سيأتي. إنما هٰذا معنىٰ كونها واقعة، أي أنها لا محالة واقعة، وذكر الآيات التي تدل علىٰ ذلك كقوله جل وعلا: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[الشورىٰ:٤٧]. ومعنىٰ ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ ﴾ أي إنه لا مرد لذلك ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ ﴾[الحاقة] فهي لا بد أن تقع، فإذا وقعت الواقعة، الواقعة هٰذه فليست لوقعتها كاذبة، فهي لا بد أن تقع، ولا مرد لها.

والعرب تعرف أنه إذا قيل: ليس لهٰذا الأمر كاذب، أي إنه في الحقيقة لا مكذِّب له وإن كَذَّب به من كذَّب، فهو في الحقيقة واقع بحيث إنه من قوة وقوعه وتحققه وحصوله لا مرد له، فإنه سيأتي جازمًا بلا معقب ولا رادٍّ ولا دافع، لأن أصل الكذب هو الإخبار بخلاف الواقع، والتكذيب هو نسبة الإخبار بخلاف الواقع للمتكلم به.

فالواقعة ليس لوقعتها كاذبة، أي ليس ثَمَّ دليلٌ يدل علىٰ أنها لا تقع، ليس لتحقق وقوعها وأنها ستحدث وأنه لا مرد لها وأنه ليس لها دافع من شيءٍ يمكن أن يقال: إن هٰذا إخبار بخلاف الواقع. بل هٰذا نفي مطلق، ليس لوقعتها كاذبة بأي نوع من أنواع الإخبار بخلاف الواقع، بل هي واقعةٌ حتمًا وحاصلةٌ ولابد ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل:١].

قال سبحانه: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ ﴾ وفُسِّر الخفض والرفع هنا بأنه باعتبار المكلَّفين، تخفض أقوامًا، وترفع آخرين، تخفض أعداء الله، وترفع أهل الإيمان بالله. هٰذا هو المقصود ولا شك من السورة، وهو ذكر من انخفضوا من الكافرين والمنافقين، وذكر من ارتفعوا من أهل الإيمان من السابقين وأهل اليمين.

لكن قوله: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ يشمل المكلفين، ويشمل أيضًا ما يكون في الملكوت، ولهٰذا تُنسَف الجبال – كما سيأتي – وتُسَيَّرُ، والسماء تنشق، والأرض تتغير وتزلزل، وهٰذا أيضًا نوع مما يكون من الخفض والرفع، فيكون هناك خفض لأشياء، ورفع لأشياء.

فإذن من فسر قوله تعالىٰ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ أنها خافضة لأقوام رافعة لآخرين كما هو قول جمهور السلف فهٰذا لأن هٰذا هو المقصود من السورة، فالمقصود بالسورة أن تبين مصير أهل الجنة ومصير أهل النار، مصير الطوائف الثلاثة. ولهٰذا قسَّم الله جل وعلا الناس – كما سيأتي – في أول السورة إلىٰ هٰذه الفئات الثلاث، وذكرهم في آخر السورة أيضًا بعد الموت، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾. هٰذا تلخيص للأقسام التي سيأتي بيانها.

أيضا المقصود من السورة أن القيامة تخفض أقواما وترفع آخرين، ولهٰذا تتذكر أن من أوجه تخصيص السلف في تفاسيرهم للعام ببعض أفراده إما حاجة المكلف ورعاية حاله، وإما النظر إلىٰ المقصود من السورة، فللسور مقاصد، ولهٰذا قد يخصون العام ببعض أفراده أو المطلق يقيدونه باعتبار موضوع السورة؛ المقصود من السورة أو باعتبار حال المكلف وما يصلحه، وهٰذا يدخل ضمن تقسيم ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره لخلاف السلف إلىٰ خلاف تنوع، وأنه ليس بخلاف تضاد.

قال جل وعلا: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ وهٰذا شرط بعد الشرط، وسيأتي جواب الجميع في الآيات القادمة إن شاء الله.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ ما معنىٰ الرج؟ هل هو الزلزلة؟ هل هو إخراج الأثقال؟ هل هو تغير صفة الأرض بحيث لا ترىٰ فيها عَوِجًا ولا أَمْتا؟ هل هو ذهاب الوديان وتغير حال الأرض؟ أم أنه يُخَصُّ بِرَجٍّ فيه زوال الجبال وفيه إخراج الأثقال؟ الظاهر أن رج الأرض هو أول علامات التغيير، أو أول ما يقع من التغيير، أو أول أسباب التغيير، وهٰذا يقودنا إلىٰ أن ما ذكر في الكتاب والسنة من الأحوال التي تكون يوم القيامة في السماء أو في الأرض من انشقاق السماء ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾[الانشقاق] ومن اختلاف الأرض ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾، وكذلك ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه]، كذلك ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾[الانشقاق] وكذلك ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ [الزلزلة] ونحو ذلك.

هٰذا كله يحدث علىٰ الصحيح بين النفختين، بين نفخة الصعق، ونفخة البعث، لأن النفخات يوم القيامة وآخر الدنيا ثلاث، أو هي اثنتان: النفخة الأولىٰ نفخة الفزع، وهي مقدمة لنفخة الصعق، بين يديها وقريبة منها، وهي التي جاءت في آخر سورة النمل في قوله جل وعلا: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[النمل:٨٧] وهي التي ذُكرت أيضا في سورة غافر في قول مؤمن آل فرعون: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾. وهٰذه نفخة الفزع التي يفزع الناس منها ولا يصعقون، يفزعون فيولون مدبرين من الفزع.

وأما نفخة البعث فإنهم يأتون مقبلين يحشرون إلىٰ الرَّحمٰن جل وعلا، يعني المؤمنين، ويساق المجرمون إلىٰ جهنم وردًا، فهٰذه تسمىٰ نفخة الفزع وهي بين يدي نفخة الصعق.

والنفخة الثانية: هي المشهورة التي تسمىٰ النفخة الأولىٰ؛ لأنها هي النفخة التي تكون مؤذنة أو بها نهاية الحياة، وهي نفخة الصعق التي جاءت في آخر سورة الزمر وفي غيرها، قال جل وعلا: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[الزمر] ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ ﴾ هٰذه تسمىٰ نفخة الصعق.

الثالثة: **نفخة البعث** كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

بين النفختين الثانية والثالثة أو الأولىٰ والثانية، أي نفخة الصعق ونفخة البعث يكون هٰذا التغير العظيم ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ هناك أحوال. فالجبال في أول الأمر تُسَيَّر ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[الكهف]، وقال جل وعلا: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا ﴾ أي الأرض ﴿عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[طه] انشقاق السماء ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾[التكوير]، هٰذا كله تغيير وتبديل في السَّمٰوات وفي الأرض حتىٰ تكون مهيأة لنزول الرب جل وعلا، مهيأة لجلب النار، ومهيأة لتقريب الجنة وإزلافها للمتقين.

﴿ رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ الرج هو التحريك بشدة، وأكد ذلك بقوله: ﴿ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ أي تحريكًا شديدًا، إذا حركت الأرض بشدة تحريكًا شديدا.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ البسُّ هو التفتيت كما قلنا، والتفتيت قد يكون أوليًّا بحيث ينقسم المفتت إلىٰ

حجارة كبيرة، وقد يكون تفتيتًا شديدًا بحيث يكون المفتت هباء، وهٰذا هو الذي يحدث يوم القيامة أن الجبال تبس وتفتت حتىٰ تكون هباءً أي تكون شبه العدم.

قال: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾، وللعلماء في الهباء تفسيرات لكن أقربها أن الهباء هو ما تراه في ضوء الشمس من الجزيئات الصغيرة جدًّا التي تطير ولا تتماسك، ولهٰذا أكد تعالىٰ قوله: ﴿هَبَآءً﴾بالنعت بقوله: ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ يعني لا يستطيع أحد أن يمسكه من بثه في الجو.

نكتفي بهٰذا.

الأسئلة

سؤال: **هل تقرأ سورة الواقعة قبل النوم، وهل يكتفىٰ قراءة الأب عن الأبناء؟**

الجواب: نعم تقرأ سورة الواقعة قبل النوم.

سؤال: **ولو يجمع غير مكلفين ثلاثة أربعة تقرأ عليهم؟**

الجواب: لا يُعلَّمون، إذا قرأها الأب يكفي، المكلف هو الذي يقرؤها. وفي إسناد الحديث شيء؛ لكن لا بأس من العمل بالضعيف في مثل هٰذا. وبعض العلماء يحسن إسناده.

سؤال: **هل يوجد اختلاف تضاد في التفسير بين السلف؟ وما هي أوجه الترجيح في التفسير؟**

الجواب: اختلاف التضاد موجود؛ لكن أكثر اختلاف السلف -الصحابة- اختلاف تنوع، وإذا وجد اختلاف تضاد فهو مما لا يؤثر في معنىٰ الآية.

أما عن أوجه الترجيح فهي كثيرة جدًّا جُمِعت في رسالة، رسالة علمية في جامعة الإمام، وهي رسالة قيِّمة جدًّا بعنوان «أوجه الترجيح بين الأقوال في التفسير»، الترجيح تارةً يكون للسياق، وتارةً يكون للنحو، وتارةً يكون لدلالة السُّنة، وتارةً يكون للتفسير، للاحتمال، بقاء العام علىٰ عمومه.

الدرس الثاني

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ أَيْ: يَنْقَسِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: قَوْمٌ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، وَهُمُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْمَنِ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ. قَالَ السُّدِّيّ: وَهُمْ جُمْهُورُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَآخَرُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ، وَهُمُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْسَرِ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِشَمَائِلِهِمْ، وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ النَّارِ -عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ صَنِيعِهِمْ- وَطَائِفَةٌ سَابِقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُمْ أَخَصُّ وَأَحْظَىٰ وَأَقْرَبُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ هُمْ سَادَتُهُمْ، فِيهِمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَهُمْ أَقَلُّ عَدَدًا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ؛ وَلِهٰذا قَالَ: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ وَهَكَذَا قَسَّمَهُمْ إِلَىٰ هٰذه الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ فِي آخِرِ السُّورَةِ وَقْتَ احْتِضَارِهِمْ، وَهَكَذَا ذَكَرَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الْآيَةَ [فَاطِرٍ:٣٢]، وَذَلِكَ عَلَىٰ أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فِي الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ جَابِرٍ الْجُعْفِيِّ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ قَالَ: هِيَ الَّتِي فِي سُورَةِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[فاطر:٣٢].

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هٰذه الْأَزْوَاجُ الثَّلَاثَةُ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي آخِرِ السُّورَةِ وَفِي سُورَةِ الْمَلَائِكَةِ.

وَقَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ قَالَ: أَصْنَافًا ثَلَاثَةً.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ قَالَ: يَعْنِي: فِرَقًا ثَلَاثَةً. وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: أَفْوَاجًا ثَلَاثَةً. وَقَالَ عُبَيد اللهِ العتكي، عن عثمان بن سراقة ابن خالة عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ اثْنَانِ في الجنة، وواحد في النار.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ أَبِي ثَوْرٍ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التَّكْوِيرِ] قَالَ: الضُّرَبَاءُ، كُلُّ رَجُلٍ مِنْ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَمَلَهُ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ

مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ قَالَ: هُمُ الضُّرَبَاءُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا الْبَرَاءُ الْغَنَوِيُّ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَلَا هٰذه الْآيَةَ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ فَقَبَضَ بِيَدِهِ قَبْضَتَيْنِ فَقَالَ: «هٰذه لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهٰذه لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي».

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ النبي الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما وعملا يا أرحم الراحمين.

أما بعد؛ فهٰذه السورة العظيمة، سورة الواقعة فيها ذكر أقسام الناس في الآخرة جزاءً علىٰ ما عملوا في الدنيا، فبعد أن ذكر الله جل جلاله وقوع الواقعة وأنها لا محالة كائنة ليس لوقعتها كاذبة، ووصفها بما وصفها به؛ مما يحتم أنها حق وأنه لا مرية فيها، ذكر الله جل جلاله وأخبر خبر الصدق اليقين أن الناس يوم القيامة يكونون أزواجا ثلاثة، فقال سبحانه: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾﴾ والمخاطب بقوله: ﴿وَكُنتُمۡ﴾ من أُرْسِلَ إليهم، وبُعِثَ إليهم محمدٌ عليه الصلاة والسلام، يعني أمة الدعوة، ﴿وَكُنتُمۡ﴾ أيها المرسَل إليهم محمدٌ عليه الصلاة والسلام أزواجًا ثلاثة، كنتم أيها الناس يوم القيامة أزواجًا ثلاثة، والأزواج جمع زوج، والزوج في اللغة وفي استعمال كتاب الله جل وعلا يطلق علىٰ معانٍ: منها أنه الشكل والنظير والصنف والجنس وأشباه ذلك؛ يعني الأغراض المجموعات والأجناس يقال لكل جنسٍ زوج، ولهٰذا الرجل زوج للمرأة، والمرأة زوج الرجل أيضا، باعتبار أن هٰذا جنس، وهٰذا جنس، يعني من جهة الرجولة والأنوثة.

قال جل وعلا في بيان ذلك في وصف الأرض: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾[لقمان]، وقال: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾﴾[الحج]، ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ أي من كل شكل وصنف من أصناف النبات والشجر. وقال جل وعلا أيضًا في بيان هٰذا: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الصافات]، ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ يعني نظراءهم وأشباههم وأشكالهم، فيحشر من أنكر الرسالة مع من أنكر الرسالة، ويُحشر من كذَّب بالبعث مع من كذب بالبعث، ويحشر من عبد الشيطان مع من عبد الشيطان، وهكذا ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيجمع العابد مع من عُبِدَ من دون الله ممن عُبِدَ وهو

راض.

وهٰذا كثير في القرآن أن يقال للشكل والنظير والصنف: زوج. ومنه هٰذه الآية: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ ﴾.

وأما آية سورة الملائكة سورة فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[فاطر:٣٢] فأحد الوجهين فيها أن المراد بالظالم لنفسه الكافر المشرك، ووجهوا وراثة الكتاب بإنزال الكتاب عليهم وبالاصطفاء، الاصطفاء لنزول الكتاب وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام لهم أولًا.

وهٰذا قولٌ في الآية، ولكن ليس بقوىٍ، بل القول القوي هو القول الثاني المشهور عن السلف والمفسرين وهو أن المقصود بالأصناف الثلاثة في آية سورة فاطر أصناف أهل الإيمان ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ يعني من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو الذي أتىٰ بالواجبات، وانتهىٰ عن المحرمات، وتقرب بما تيسر، ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وهو الْمُسَارِع في كل باب من أبواب الخير بحسب استطاعته.

ويؤيد قوة هٰذا التفسير، وأنهم لا يدخل فيهم المكذبون الضالون الذين حقت عليهم كلمة ربك أنهم من أصحاب الجحيم ذِكر الاصطفاء في الآية، والأصل في الاصطفاء أنه اختيار للخير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾[الأعراف:١٥٥] اختيارٌ واصطفاء لأمرٍ يُحمَد، وأما الاصطفاء العام لمخاطبته بالرسالة فهٰذا ليس باصطفاء في الحقيقة، وإنما يقال لمن اختارهم الله جل وعلا للخير: إنهم مصطفون، هٰذا هو الذي جاء في القرآن في غير موضع كقوله جل وعلا في سورة ص: ﴿ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ ﴾ أي من اصطفاهم الله جل وعلا لذلك.

وأما قوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ ﴾ فليس من هٰذا الباب؛ لأن الله جل وعلا ذكر فيها صنفين من أهل الجنة وهم السابقون وأهل اليمين، وأهل اليمين منهم المقتصد ومنهم من خلط عملًا صالحا وآخر سيئا، فكُفِّرت ذنوبه ومُحِّص أو غفر الله جل وعلا له ابتداءً فصار من أصحاب اليمين، وأما أصحاب الشمال فهم المكذبون الضالون ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ ﴾ كما سيأتي بيانهم إن شاء الله تعالىٰ.

واختلف العلماء في سبب وصفهم بأنهم أصحاب الميمنة، وأصحاب الْمَشْأَمَة، والسابقون السابقون، لِمَ وُصِفُوا بأصحاب الميمنة، وأصحاب الْمَشْأَمَة؟ وذلك علىٰ قولين:

الأول: أن ذلك راجع إلىٰ أخذ الكتاب، وهٰذا هو الذي عليه جمهور أهل العلم؛ لأن أصحاب اليمين هم من أخذوا كتابهم باليمين، ويؤخذ بهم ذات اليمين إكرامًا لهم، ويعبرون علىٰ الصراط، وأصحاب الشمال هم من أخذوا كتبهم بشمالهم وراء ظهورهم ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾[الانشقاق] هؤلاء لأخذهم الكتاب بالشمال فيساقون إلىٰ الشمال فيَرِدُون في النار، ويتهافتون فيها.

وأما القول الثاني: فهو الذي أشار إليه ابن كثير في هٰذا الموطن، وهو أنهم أهل اليمين أي مَن هم علىٰ يمين العرش، وأهل الشمال مَن هم علىٰ شمال العرش، والسابقون بين يدي الرَّحمٰن جل وعلا وهٰذا قول فيه ضعف عن الأول.

وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَة، حَدَّثَنَا خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أنه قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَنِ السَّابِقُونَ إِلَىٰ ظِلِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ » قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبِلُوهُ، وَإِذَا سُئِلُوهُ بَذَلُوهُ، وَحَكَمُوا لِلنَّاسِ كَحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ».

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَأَبُو حَرْزَةَ يَعْقُوبُ بْنُ مُجَاهِدٍ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾: هُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَقَالَ السُّدِّيّ: هُمْ أَهْلُ عِلِّيِّينَ.

(وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَة) الحسنُ بن موسىٰ الْأَشْيَب شيخ الإمام أحمد، وهو من كبار مشايخه، لقيه قديمًا، وروايته عن ابن لَهِيعَةَ علىٰ الصحيح محمولة علىٰ أنه سمع منه قبل احتراق كتبه، فينبغي أن يُضم إلىٰ العبادلة علىٰ القول بأن ابن لهيعة ثقةٌ فيما حدث به قبل احتراق كتبه أو قبل اختلاطه.

في هٰذا الأثر حديث عائشة، رواية القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عائشة فيه ذكر ظل الله، وظل الله جل وعلا المقرر في كلام أئمة أهل السنة في الماضي – يعني في المتقدمين – أن إضافة الظل هنا إضافة تشريف، إضافة مخلوق إلىٰ خالقه كإضافة البيت في بيت الله وناقة الله، ونحو ذلك، وهو الذي جاء في الحديث المشهور المتفق علىٰ صحته: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِيْ ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ».

هٰذا ظل مخلوق والإضافة هنا ليست إضافة صفات، ويبين ذلك الحديث الآخر الذي في المسند وفي غيره بإسناد قوي الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «الْمُتَحَابُّونَ فِيْ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِيْ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ».

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن الظل هنا صفة من صفات الله جل وعلا، ولا يقتضي أن يكون ثَم نور أو نحو ذلك من عوارض الأجسام؛ بل تُثبَت صفة علىٰ طريقة الإثبات العام عند أهل السنة والجماعة، لكن هٰذا يحتاج إلىٰ تأمل وإلىٰ بحث، هل نص عليه أحد أئمة أهل السنة المتقدمين.

وَقَالَ ابْنِ أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾، قَالَ: يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، سَبَقَ إِلَىٰ مُوسَىٰ، وَمُؤْمِنُ آلِ يس، سَبَقَ إِلَىٰ عِيسَىٰ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، سَبَقَ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ الْفَلَّاسُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمَدَائِنِيِّ الْبَزَّازِ، عَنْ شُعَيْب بْنِ الضَّحَّاكِ الْمَدَائِنِيِّ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَة، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيح بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَمَّادٍ، حَدَّثَنَا مِهْرَان، عَنْ خَارِجَةَ، عَنْ قُرَّة، عَنِ ابْنِ سِيرِين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ الَّذِينَ صَلَّوْا لِلْقِبْلَتَيْنِ.

هٰذا الخلاف في التفسير له أسباب، وأسباب خلاف السلف في التفسير بعضه يكون خلافًا مقبولًا له حجته، وبعضه لا يكون له حجه بينة، ومنه هٰذا التفسير.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ هم من صلىٰ إلىٰ القبلتين، فهٰذه الآية مكية، والآية المكية تفهم علىٰ وقت نزولها، وإن كانت تحتمل بعد ذلك العموم؛ لكن من كان في حكمها؛ من مات قبل أن يصلي إلىٰ القبلتين يدخل فيها، فهي ليست كقوله جل وعلا في سورة الحديد: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾[الحديد:١٠] وكذلك قوله في سورة براءة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١٠٠] فهٰذه يحتمل أن يكون المراد منها مَن صلىٰ إلىٰ القبلتين باعتبار أنه سابق؛ لكن أسبق ممن صلىٰ إلىٰ القبلتين: من صلىٰ في مكة إلىٰ بيت المقدس ومات فيها ونحو ذلك.

فإذن هٰذا التفسير نَظَرَ فيه من قال: من صلىٰ إلىٰ القبلتين إلىٰ الآيات الأخر في هٰذا الباب، وليس هٰذه بمكانها، أي ليس هٰذا بمحل تفسيرها بذلك؛ لأن السورة مكية، والكلام علىٰ صفة السبق بعامة في أهل أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ خَارِجَةَ، بِهِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ وقَتَادَةُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ أَيْ: مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي سَوْدَةَ أَنَّهُ قَرَأَ هٰذه الْآيَةَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ ثُمَّ قَالَ: أَوَّلُهُمْ رَوَاحًا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَأَوَّلُهُمْ خُرُوجًا فِي سَبِيلِ الله.

وَهٰذه الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّابِقِينَ هُمُ الْمُبَادِرُونَ إِلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ كَمَا أُمِرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣٣]، وَقَالَ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الْحَدِيد: ٢١]، فَمَنْ سَابَقَ إِلَىٰ هٰذه الدُّنْيَا وَسَبَقَ إِلَىٰ الْخَيْرِ، كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْكَرَامَةِ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ؛ وَلِهٰذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ زَكَرِيَّا الْقَزَّازُ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا خَارِجَةُ بْنُ مُصعَب، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، جَعَلْتَ لِبَنِي آدَمَ الدُّنْيَا فَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ، فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ. فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ. فَرَاجَعُوا ثَلَاثًا، فَقَالَ: لَا أَجْعَلُ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدِيَّ كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ، فَكَانَ. ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللهِ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

وَقَدْ رَوَىٰ هٰذا الْأَثَرَ الْإِمَامُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ فِي كِتَابِهِ: «الرَّدِّ عَلَىٰ الْجَهْمِيَّةِ»، وَلَفْظُهُ: فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «لَنْ أَجْعَلَ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدِيّ، كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ فَكَانَ».

من ضمن الأقوال التي ذكر قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ من كل أمة، وهٰذا مبني علىٰ الخلاف في تفسير الأقسام الثلاثة في آية فاطر ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[فاطر:٣٢] هل هٰذا في هٰذه الأمة خاصة أم في جميع الأمم؟ ولأهل العلم في ذلك قولان:

القول الأول: أن في الأمم التي قبلنا ظالما لنفسه فاسق، وفيهم مقتصد، وأما السابقون فهم نادرون أو قِلة، ولذلك لا يجعلون قسمًا مستقلًا، وذلك لقول الله جل وعلا في أهل الكتاب في سورة المائدة: ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ۝٦٦﴾، وقال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾[الحديد] فجعلهم قسمين فقط، وهٰذا رجَّحه طائفة من المحققين من أن أهل الكتاب علىٰ فئتين فقط، والأمم من قبلنا السابق فيهم

نادر فلا يجعل السابقون فيهم قسما مستقلا.

القول الثاني: أن الأمم من قبلنا كهٰذه الأمة: منهم سابق، ومنهم مقتصد، ومنهم ظالم لنفسه، وهٰذا الثاني هو الصحيح؛ لأجل أن عدم التنصيص في آية سورة المائدة وفي غيرها لا يدل علىٰ عدم الوجود لتيقننا بأن منهم من كان سابقًا بالخيرات؛ فحواريو عيسىٰ عليه السلام كانوا سابقين، وأصحاب موسىٰ عليه السلام ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ ﴾[الأعراف:١٥٥] كانوا سابقين. وهكذا فكل رسول يكون من قومه من هو سابق إلىٰ الإيمان به، سابق إلىٰ امتثال أمره، سابق إلىٰ الجهاد معه، بحسب ما قدر الله جل وعلا لهم وكتب.

والصحيح ما ذكر ابن كثير هنا قال: (وَهٰذه الْأَقْوَالُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّابِقِينَ هُمُ الْمُبَادِرُونَ إِلَىٰ فِعْلِ الْخَيِّرَاتِ كَمَا أُمِرُوا).

الدرس الثالث

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ أَنَّهُمْ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ أَيْ: جَمَاعَةٌ ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾. وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وَ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾. فَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِينَ: الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ، وَالْآخِرِينَ: هٰذه الْأُمَّةُ. هٰذا رِوَايَةٌ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، رَوَاهَا عَنْهُمَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَاسْتَأْنَسَ بِقَوْلِهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَلَمْ يحك غيره ولا عزاه إلىٰ أحد.

وَمِمَّا يُسْتَأْنَسُ بِهِ لِهٰذا الْقَوْلِ، مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عيسىٰ بن الطباع، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَتْ: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ بَلْ أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ -أَوْ: شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ- وَتُقَاسِمُونَهُمُ النِّصْفَ الثَّانِي».

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَسْوَدَ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ شَرِيكٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ، بَيَّاعِ الْمِلَاءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَذَكَرَهُ. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ نَحْوُ هٰذا، وَرَوَاهُ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ مِنْ طَرِيقِ هِشَامِ بْنِ عَمَّارٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ رَبِّهِ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ ﴾، ذُكِرَ فِيهَا ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَّا؟ قَالَ: فَأُمْسِكَ آخِرُ السُّورَةِ سَنَةً، ثُمَّ نَزَلَ: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عُمَرُ، تَعَالَ فَاسْمَعْ مَا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، أَلَا وَإِنَّ مِنْ آدَمَ إِلَيَّ ثُلَّةً، وَأُمَّتِي ثُلَّةٌ، وَلَنْ نَسْتَكْمِلَ ثُلَّتَنَا حَتَّىٰ نَسْتَعِينَ بِالسُّودَانِ مِنْ رُعَاةِ الْإِبِلِ، مِمَّنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

هٰكَذَا أَوْرَدَهُ فِي تَرْجَمَةِ (عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ)، إِسْنَادًا وَمَتْنًا، وَلٰكِنْ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ. وَقَدْ وَرَدَتْ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ بِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ، وَهُوَ مُفْرَدٌ فِي (صِفَةِ الْجَنَّةِ) وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَهٰذا الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَاهُنَا، فِيهِ نَظَرٌ، بَلْ هُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ هٰذه الْأُمَّةَ هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، فَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُقَرَّبُونَ فِي غَيْرِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَابَلَ مَجْمُوعُ الْأُمَمِ

بِهٰذه الْأُمَّةِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. فَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي هٰذا الْمَقَامِ، هُوَ الرَّاجِحُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ أَيْ: مِنْ صَدْرِ هٰذه الْأُمَّةِ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ أَيْ: مِنْ هٰذه الْأُمَّةِ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ بَكْرٍ الْمُزَنِيُّ، سَمِعْتُ الْحَسَنَ: أَتَىٰ عَلَىٰ هٰذه الْآيَةِ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ فَقَالَ: أَمَّا السَّابِقُونَ، فَقَدْ مَضَوْا، وَلٰكِنِ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْيَمِينِ.

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا السُّرِّيّ بْنُ يَحْيَىٰ قَالَ: قَرَأَ الْحَسَنُ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ثُلَّةٌ مِمَّنْ مَضَىٰ من هٰذه الأمة.

وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَنْقَرِي، حَدَّثَنَا أَبُو هِلَالٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، أَنَّهُ قَالَ فِي هٰذه الْآيَةِ: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ، أَوْ يَرْجُونَ، أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ مِنْ هٰذه الْأُمَّةِ. فَهٰذا قَوْلُ الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ أَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ هٰذه الْأُمَّةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ كُلِّ أُمَّةٍ خَيْرٌ مِنْ آخِرِهَا.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه، وسلم تسليما مزيدا.

أما بعد، فأسأل الله جل وجلاله أن يجعلني وإياكم ممن قبل عمله، وأخلص له القصد، وسلم له القلب وجعل دعاءه مسموعا، وعمله صالحا مقبولا، كما نسأله جل جلاله أن يوفقني وإياكم، بالعلم النافع والعمل الصالح، والبصيرة في الدين، والفقه فيه، وأن يجعلنا من أنصار دينه، الباذلين له.

اللّٰهمَّ آمين،

قال جل وعلا: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ فوصفهم بما سمعتم بقوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ والسبق المراد به في هٰذه الآية ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ يعني من سابق إلىٰ الخيرات، أولئك الذين سابقوا إلىٰ الخيرات هم الذين يقربهم الله جل وعلا، لأن حقيقة السبق إلىٰ الخير هو سبق وتقدم إلىٰ الله جل وعلا بما يرضيهم، وكان الجزاء من جنس العمل، لما سابقوا إلىٰ رضوان الله وإلىٰ القرب طاعة وامتثالا أثابهم الله جل وعلا بما هو من جنس قصدهم وسعيهم، وهو أن يقربهم منه

جل وعلا.

ولهٰذا الخلاف الذي ذكره العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الأولين والآخرين في قوله تعالىٰ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ وأن العلماء -علماء التفسير- لهم في ذلك قولان:

القول الأول: الذي اختاره جماعة من السلف مروي عن مجاهد وعن الحسن وعن جماعة واختاره ابن جرير ونصره وأيده من أن قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ الأمم السالفة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ المراد بالآخرين هٰذه الأمة.

والقول الثاني: وهو قول المحققين من اهل العلم لهٰذه الآية، أن الأولين والآخرين من هٰذه الأمة ليست هٰذه الأوصاف مقسمة بين هٰذه الأمة والأمم السالفة؛ بل المقصود هنا هٰذه الأمم، وهٰذا هو الصحيح الذي لا ينبغي القول بخلافه، وذلك يرجح لأمور.

الأول: أن الله جل وعلا في صدر هٰذه السورة خاطب أمة محمد عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ وهٰذا الخطاب ليس لخلق الله جل وعلا ليس لبني آدم، وإنما هو لخصوص هٰذه الأمة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَكُنتُمْ﴾ يعني: يا أيتها الأمة، يا من خُطِبوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام كنتم أزواجًا ثلاثة: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾ هٰذا صنف، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ هٰذا صنف، وهم أهل النار والعياذ بالله، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾. فالجميع ممن خوطبوا بقوله: ﴿كُنتُمْ﴾ ليس في الأمم السالفة، وإنما الكلام في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، فالسابقون إذن في قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ هم هٰذه الأمة، فالكلام كله في سياقه، وسياقه علىٰ هٰذه الأمة.

الوجه الثاني: أن الله جل وعلا وصف هؤلاء بأنهم أهل سبق فقال جل وعلا ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ ثم جعل السابقين ثلة من الأولين وقليل من الآخرين، وهٰذا يوافق آية فاطر، وهي أن السبق فيمن أورثوا القرآن قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني القرآن ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[فاطر:٣٢] فَوَصْفُ السبقِ في القرآن وُصِفت به هٰذه الأمة، صَدْرُ هٰذه الأمة هم السابقون بالخيرات، وهٰذا يقوِّي ويرجح بظهور أن المراد بالأولين والآخرين أنهم من هٰذه الأمة، وليس الكلام في الأمم السالفة، ولا يدخلون أصلًا في هٰذا المقام.

ولقد ذكرنا لكم فيما مضىٰ فيما أذكر أن العلماء اختلفوا في الأمم السالفة: هل الأمم السالفة منهم سابقون بالخيرات أو أنهم علىٰ قسمين: قسم ظالم لنفسه وقسم مقتصد، علىٰ قولين لأهل العلم:

القول الأول: أنهم قسمان فقط مقتصد وظالم لنفسه، واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾[المائدة] فجعلهم قسمين.

القول الثاني: أن الأمم السالفة فيهم السابق، فيهم المسارع الذي يتقرب بالخيرات، يتقرب بالنوافل بعد الفرائض وفيهم المقتصد، وفيهم الظالم لنفسه، كما هو موجود في هٰذه الأمة، وهٰذا القول كما ذكرنا لكم هو الراجح وهو الصحيح؛ لأن عدم ذكر الصنف الثالث في الآية (منهم أمة مقتصدة) لا يدل علىٰ عدم وجوده.

فإذن ألأمم السالفة منهم السابق بالخيرات، ومنهم مقتصد ومنهم ظالم لنفسه، كحال هٰذه الأمة ولا فرق؛ لٰكِن الخطاب في آيات الواقعة في هٰذه الأمة.

لهٰذا نقول: إن الراجح، والقول البين في الدلالة لما ذكرنا لك من الوجهين هو ما اختاره أكثر العلماء في أن الأولين والآخرين من هٰذه الأمة.

وأما استدلال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحديث أبي هريرة المشهور، المروي من طريق الصحيفة الصادقة؛ صحيفة عبد الرزاق، عن معمر، عن همام عن أبي هريرة: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا» فهٰذا لا يدل علىٰ أن الأمة لا يوصف أحد فيها بأنه أول، وأنها موصوفة بالتأخر فقط، نعم نحن الآخرون بالنسبة إلىٰ مَن قبلنا؛ لكن هٰذه الأمة فيهم الأولون، وفيهم الآخرون، فما اتصل بزمان النبوة وقَرُب منه من القرون الثلاثة المفضلة فهؤلاء أولون، ثم مَن تأخر عنهم وفتر عن ذلك يقرب من كونه آخرًا، والمسألة نسبية كما هو معلوم.

فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُمَّ الْأَمْرُ جَمِيعَ الْأُمَمِ كُلُّ أُمَّةٍ بِحَسْبِهَا؛ وَلِهٰذا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا، مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» الْحَدِيثَ بِتَمَامِهِ.

(الحديثَ) إذا قيل: الحديث، تكون منصوبة، بفعل محذوف تقديره: اقرأ الحديث، أو: أتم الحديث، ونحو ذلك، ولا يعني اقرأ الحديث أو أتم الحديث أنك تكون حافظا له، وأتمه يعني من حفظك، لا بل من باب التأدب مع الحديث، والتأدب مع القرآن، تقول مثلا: كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[البقرة:٢٧٨] الآيةَ، يعني اقرأ الآية، تأدبا من أن كون قرأ بعض الآية أو استدل ببعض الآية ولم يكمل الآية، أو قرأ بعض حديث النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقطعه ولم يكمل البقية، فقول العلما بعد أول آية أو بعد الحديث: الحديثَ، هٰذا منصوب بفعل محذوف تقديره: اقرأ الحديث، أو أتم الحديث تأدبا من أن يقطعوا الآية أو أن يقطعوا الحديث.

والمراد بالقرن هنا قرن الناس، أي جيل الناس، وليس القرن الذي هو مائة سنة، والجيل يعني في اللغة الفئة من الناس الذين تتقارب أعمارهم يخلف كلَ جيل آخر بعدهم، ثم جيل آخر، وهكذا، وهم ما بين الستين إلىٰ السبعين سنة، لأن أعمار أمة النبي ﷺ ما بين الستين إلىٰ السبعين، وذلك كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾[الفرقان] فالقرون يعني الأجيال.

فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا زِيَادٌ أَبُو عُمَرَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرَىٰ أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ»، فَهٰذا الْحَدِيثُ، بَعْدَ الْحُكْمِ بِصِحَّةِ إِسْنَادِهِ، مَحْمُولٌ عَلَىٰ أَنَّ الدِّينَ كَمَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ أَوَّلِ الْأُمَّةِ فِي إِبْلَاغِهِ إِلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، كَذَلِكَ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْقَائِمِينَ بِهِ فِي أَوَاخِرِهَا، وَتَثْبِيتِ النَّاسِ عَلَىٰ السُّنَّةِ وَرِوَايَتِهَا وَإِظْهَارِهَا، وَالْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ. وَكَذَلِكَ الزَّرْعُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَىٰ الْمَطَرِ الْأَوَّلِ وَإِلَىٰ الْمَطَرِ الثَّانِي، وَلَكِنَّ الْعُمْدَةَ الْكُبْرَىٰ عَلَىٰ الْأَوَّلِ، وَاحْتِيَاجُ الزَّرْعِ إِلَيْهِ آكَدُ، فَإِنَّهُ لَوْلَاهُ مَا نَبَتَ فِي الْأَرْضِ، وَلَا تَعَلَّقَ أَسَاسُهُ فِيهَا؛ وَلِهٰذا قَالَ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ». وَفِي لَفْظٍ: «حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». وَالْغَرَضُ أَنَّ هٰذه الْأُمَّةَ أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، وَالْمُقَرَّبُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا وَأَعْلَىٰ مَنْزِلَةً؛ لِشَرَفِ دِينِهَا وَعِظَمِ نَبِيِّهَا. وَلِهٰذا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ فِي هٰذه الْأُمَّةِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَفِي لَفْظٍ: «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا». وَفِي آخَرَ «مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا».

وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ [مَرْثَدٍ] الطَّبَرَانِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ -هُوَ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَيَّاشٍ- حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي ضَمْضَم -يَعْنِي ابْنَ زُرْعَة- عَنْ شُرَيْحٍ -هُوَ ابْنُ عُبَيْدٍ- عَنْ أَبِي مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُبْعَثَنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ زُمْرَةٌ جَمِيعُهَا يُحِيطُونَ الْأَرْضَ، تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَمَا جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

وَحَسَنٌ أَنْ يَذْكُرَ هَاهُنَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» حَيْثُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو نَصْرِ بْنُ قَتَادَةَ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرٍو بن مطر، حدثنا جعفر -هو ابن مُحَمَّدِ بْنِ الْمُسْتَفَاضِ الْفِرْيَابِيُّ- حَدَّثَنِي أَبُو وَهْبٍ الوليد بن عبد الْمَلِكِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُسَرِّح الحرَّاني، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ الْقُرَشِيُّ الْحَرَّانِيُّ، عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْجُهَنِيِّ، عَنْ عَمِّهِ أَبِي مَشْجَعة بْنِ رِبْعِي، عَنِ ابْنِ زَمْل الْجُهَنِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا صَلَّىٰ الصُّبْحَ قَالَ، وَهُوَ ثَانٍ رِجْلَهُ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ. أَسْتَغْفِرُ اللهَ، إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا» سَبْعِينَ مَرَّةً، ثُمَّ يَقُولُ: «سَبْعِينَ بِسَبْعِمِائَةٍ، لَا خَيْرَ لِمَنْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ». ثُمَّ يَقُولُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَقْبِلُ النَّاسَ بِوَجْهِهِ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الرُّؤْيَا، ثُمَّ يَقُولُ: «هَلْ رَأَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا؟» قَالَ ابْنُ زَمْلٍ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ:

«خَيْرٌ تَلْقَاهُ، وَشَرٌّ تُوَقَّاهُ، وَخَيْرٌ لَنَا، وَشَرٌّ عَلَىٰ أَعْدَائِنَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. اقْصُصْ رُؤْيَاكَ». فَقُلْتُ: رَأَيْتُ جَمِيعَ الناس علىٰ طريق رحب سهل لاحِب، وَالنَّاسُ عَلَىٰ الْجَادَّةِ مُنْطَلِقِينَ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ أَشْفَىٰ ذَلِكَ الطَّرِيقُ عَلَىٰ مَرْجٍ لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُ، يَرِفُّ رَفِيفًا يَقْطُرُ مَاؤُهُ، فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَلَإِ قَالَ: وَكَأَنِّي بِالرَّعْلَةِ الْأُوْلَىٰ حِينَ أَشْفَوْا عَلَىٰ الْمَرْجِ كَبَّرُوا، ثُمَّ أَكَبُّوا رَوَاحِلَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمْ يَظْلِمُوهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا. قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مُنْطَلِقِينَ. ثُمَّ جَاءَتِ الرَّعْلَةُ الثَّانِيَةُ وَهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ أَضْعَافًا، فَلَمَّا أَشْفَوْا عَلَىٰ الْمَرْجِ كَبَّرُوا، ثُمَّ أَكَبُّوا رَوَاحِلَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، فَمِنْهُمُ الْمُرْتِعُ، وَمِنْهُمُ الْآخِذُ الضِّغْثَ. وَمَضَوْا عَلَىٰ ذَلِكَ. قَالَ: ثُمَّ قَدِمَ عِظَمُ النَّاسِ، فَلَمَّا أَشْفَوْا عَلَىٰ الْمَرْجِ كَبَّرُوا وَقَالُوا: (هٰذا خَيْرُ الْمَنْزِلِ). كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَمِيلُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ، لَزِمْتُ الطَّرِيقَ حَتَّىٰ آتِيَ أَقْصَىٰ الْمَرْجِ، فَإِذَا أَنَا بِكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَلَىٰ مِنْبَرٍ فِيهِ سَبْعُ دَرَجَاتٍ وَأَنْتَ فِي أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَإِذَا عَنْ يَمِينِكَ رَجُلٌ آدَمُ شَثْلٌ أَقْنَىٰ، إِذَا هُوَ تَكَلَّمَ يَسْمُو فَيَفْرَعُ الرِّجَالَ طُولًا وَإِذَا عَنْ يَسَارِكَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ بَاذٌّ كَثِيرُ خِيلَانِ الْوَجْهِ، كَأَنَّمَا حُمِّمَ شَعْرُهُ بِالْمَاءِ، إِذَا هُوَ تَكَلَّمَ أَصْغَيْتُمْ إِكْرَامًا لَهُ. وَإِذَا أَمَامَ ذَلِكَ رَجُلٌ شَيْخٌ أَشْبَهُ النَّاسِ بِكَ خَلْقًا وَوَجْهًا، كُلُّكُمْ تَؤُمُّونَهُ تُرِيدُونَهُ، وَإِذَا أَمَامَ ذَلِكَ نَاقَةٌ عَجْفَاءُ شَارِفٌ، وَإِذَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّكَ تَبْعَثُهَا. قَالَ: فَامْتَقَعَ لَوْنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَاعَةً ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنَ الطَّرِيقِ السهل الرحب اللا حب، فَذَاكَ مَا حُمِلْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِ. وَأَمَّا الْمَرْجُ الَّذِي رَأَيْتَ، فَالدُّنْيَا مَضَيْتُ أَنَا وَأَصْحَابِي لَمْ نَتَعَلَّقْ مِنْهَا بِشَيْءٍ، وَلَمْ تَتَعَلَّقْ مِنَّا، وَلَمْ نُرِدْهَا وَلَمْ تُرِدْنَا. ثُمَّ جَاءَتِ الرَّعْلَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ بَعْدِنَا وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَّا أَضْعَافًا، فَمِنْهُمُ الْمُرْتِعُ، وَمِنْهُمُ الْآخِذُ الضِّغْثَ، وَنَجَوْا عَلَىٰ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَ عِظَمُ النَّاسِ، فَمَالُوا فِي الْمَرْجِ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَأَمَّا أَنْتَ، فَمَضَيْتَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ صَالِحَةٍ، فَلَنْ تَزَالَ عَلَيْهَا حَتَّىٰ تَلْقَانِي. وَأَمَّا الْمِنْبَرُ الَّذِي رَأَيْتَ فِيهِ سَبْعَ دَرَجَاتٍ وَأَنَا فِي أَعْلَاهَا دَرَجَةً، فَالدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ، أَنَا فِي آخِرِهَا أَلْفًا. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي رَأَيْتَ عَلَىٰ يَمِينِي الْآدَمُ الشَّثْلُ، فَذَلِكَ مُوسَىٰ عليه السلام إِذَا تَكَلَّمَ، يَعْلُو الرِّجَالَ بِفَضْلِ كَلَامِ اللهِ إِيَّاهُ. وَالَّذِي رَأَيْتَ عَنْ يَسَارِي الْبَاذُّ الرِّبْعَةُ الْكَثِيرُ خِيلَانِ الْوَجْهِ، كَأَنَّمَا حُمِّمَ شَعْرُهُ بِالْمَاءِ، فَذَلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، نُكْرِمُهُ لِإِكْرَامِ اللهِ إِيَّاهُ. وَأَمَّا الشَّيْخُ الَّذِي رَأَيْتَ أَشْبَهَ النَّاسِ بِي خَلْقًا وَوَجْهًا فَذَاكَ أَبُونَا إِبْرَاهِيمُ، كُلُّنَا نَؤُمُّهُ وَنَقْتَدِي بِهِ. وَأَمَّا النَّاقَةُ الَّتِي رَأَيْتَ وَرَأَيْتَنِي أَبْعَثُهَا، فَهِيَ السَّاعَةُ، عَلَيْنَا تَقُومُ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا أُمَّةَ بَعْدَ أُمَّتِي». قَالَ: فَمَا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ رُؤْيَا بَعْدَ هٰذا إِلَّا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ، فَيُحَدِّثُهُ بِهَا مُتَبَرِّعًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ مَرْمُولَةٌ بِالذَّهَبِ، يَعْنِي: مَنْسُوجَةٌ بِهِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وعِكْرِمَة، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْر، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُ.

وَقَالَ السُّدِّيّ: مَرْمُولَةٌ بِالذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: مُشَبَّكَةٌ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمِنْهُ سُمِّيَ وَضِينُ النَّاقَةِ الَّذِي تَحْتَ بَطْنِهَا، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَىٰ مَفْعُولٍ؛ لِأَنَّهُ مَضْفُورٌ، وَكَذَلِكَ السُّرُرُ فِي الْجَنَّةِ مَضْفُورَةٌ بِالذَّهَبِ وَاللَّآلِئِ.

وَقَالَ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ أَيْ: وُجُوهُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، لَيْسَ أَحَدٌ وَرَاءَ أَحَدٍ. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ أَيْ: مُخَلَّدُونَ عَلَىٰ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يَكْبُرُونَ عَنْهَا وَلَا يَشِيبُونَ وَلَا يَتَغَيَّرُونَ، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾، أَمَّا الْأَكْوَابُ فَهِيَ: الْكِيزَانُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا آذَانَ. وَالْأَبَارِيقُ: التي جمعت الوصفين. والكؤوس: الْهَنَابَاتُ، وَالْجَمِيعُ مِنْ خَمْرٍ مِنْ عَيْنٍ جَارِيَةٍ مَعِين، لَيْسَ مِنْ أَوْعِيَةٍ تَنْقَطِعُ وَتُفْرَغُ، بَلْ مِنْ عُيُونٍ سَارِحَةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا تصدع رؤوسهم وَلَا تُنْزَفُ عُقُولُهُمْ، بَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ مَعَ الشِّدَّةِ الْمُطْرِبَةِ وَاللَّذَّةِ الْحَاصِلَةِ.

وَرَوَىٰ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: فِي الْخَمْرِ أَرْبَعُ خِصَالٍ: السُّكْرُ، وَالصُّدَاعُ، وَالْقَيْءُ، وَالْبَوْلُ. فَذَكَرَ اللهُ خَمْرَ الْجَنَّةِ وَنَزَّهَهَا عَنْ هٰذه الْخِصَالِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وعِكْرِمَة، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْر، وَعَطِيَّةُ، وَقَتَادَةُ، والسُّدِّيّ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يَقُولُ: لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا صُدَاعُ رَأْسٍ.

وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أَيْ: لَا تَذْهَبُ بِعُقُولِهِمْ.

مر معنا في الكلام علىٰ الآية السابقة في قوله تعالىٰ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ ما رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في مسنده مرفوعًا: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَىٰ أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ»، وهٰذا يفهم مع الأحاديث المشهورة المتواترة المعروفة أن خير هٰذه الأمة أولها: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، ولكن المقصود بالحديث أنه النفع العام، النفع العام لهٰذه الأمة لبعضها وللناس عامة لقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠] يعني كنتم للناس خير أمةٍ أخرجت. ومن جهة النفع العام كما أن الأولين من هٰذه الأمة من القرون المفضلة نفعوا الناس، كذلك لا ينقطع النفع، كما

أن المطر المتأخر ينفع الأرض كما نفعها المطر المبكر، فهٰذه الأمة كالغيث، ولكن لا يدل هٰذا الحديث علىٰ أن المتأخرين قد يكونون أفضل من المتقدمين؛ لا، بل يدلُّ علىٰ أن المتأخرين يكون فيهم فضل ونفع وعلم وإحسان وبذل كما كان هٰذا موجودًا في المتقدمين.

ومن اللطائف في هٰذا الباب أن العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب كتاب «فتح القدير» في التفسير و«نيل الأوطار» عابه أهل زمانه لما كثر منه الاجتهاد في مسائل خالف فيها قومه الزَّيْدِية، ورجع فيها إلىٰ القول المعضود بالدليل المعروف عند أهل السنة، فقالوا له: أنت تريد أن تكون مُفضلًا علىٰ الأولين، ولكن أنت متأخر، فكيف تسبق الأولين؟ وكيف تأتي بما لم يأت به الأولون؟ فأنشأ أبياتا حسنة في هٰذا المعنىٰ تُفهَم علىٰ ما ذكرت لك من فهم الحديث، منها قوله:

قَالُوا أَتَيْتَ مُؤَخَّرًا ... فَأَجَبْتُ دَارُ الخلدِ أُخْرَىٰ

سَبَقَ الْهِلَالُ الْبَدْرَ لَكِنْ ... لَمْ يَصِرْ بِالسَّبْقِ بَدْرَا

أي إن التأخر ليس عيبًا، لكن العيب والنقص في العلوم، والعيب والنقص يكون في السجايا، يكون في الأمور المكتسبة. أما الزمان فليس عيبًا أن يوجد المرء في زمن متأخر ولا يوجد في زمنٍ مُبكر، نعم من جهة الفضل فالله جل وعلا اختص الصحابة والتابعين وأتباع التابعين بالقرب من عهد النبوة، وهٰذا مزيد فضل، لكن ليس من تأخر معيبًا بالتأخر؛ لكن ليس لمن تقدم مزيد فضل بالتقدم، وكما قال عليه الصلاة والسلام: « مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لاَ يُدْرَىٰ أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ» أي إن الجميع نافع.

أما قوله جل وعلا: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي إنها صنعت من عقود الذهب المتشابكة، وكان الناس في ذاك الزمان يتبارون في أن الصنعة الدقيقة هي ما يكون فيها عمل أكثر وتشابك أكثر وضَفْرٌ، يعني عقد الأشياء بدقة أكثر، إما من الحديد أو من الذهب أو غير ذلك. وهٰذا يدل علىٰ مزيد دقة في الصناعة، وعلىٰ أنها معتنًىٰ بها، أي في صناعات الدنيا.

فالله جل وعلا ووصف سرر الجنة بأعلىٰ وصفٍ؛ بأنها موضونة، أي إن بعضها مشتبك مع بعض، وأنها مجدولة، وبعضها داخل في بعض، فكيف إذن هي صناعتها؟! وكيف هو شكلها؟! وكيف هي هيئتها؟! لا يعلم ذلك إلا رب العالمين الذي خلقها.

والسرر جمع سرير، والسرير هو الكرسي المتسع للجلوس عليه والتمدد عليه، وليس خاصًّا في اللغة بالنوم، ولذلك يقال للكرسي الكبير الذي يجلس عليه الملك سريرُ المَلك، ويقال: سرير المُلك لأنه

متسع يمكن أن يتربع عليه، ويمكن أن يمد رجليه عليه، ونحو ذلك، وهٰذا هو المقصود هنا، أي إن المقاعد التي يجلسون عليها هي سرر متسعة ذات صنعة بديعة من ذهبٍ ونحوه.

قَالَ: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا ﴾ من سعتها وفراهتها وحسنها والتلذذ بالجلوس عليها قال: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ مع كثرتهم؛ لكن بعضهم يقابل بعضًا، ثم وصفهم وصفَ النعيم بقوله: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ الأكواب هي الكيزان التي ليس لها آذان، والأباريق هي التي لها آذان.

وذكر ثلاثة أشياء: أكواب، وأباريق، وكأس، ثم قال: ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ والمعين هو المورد الصافي الذي لا تشوبه شائبة، تقول العرب: هٰذا ماء معين، أو هٰذا مورد معين إذا كان صافيًا قد خَلِي من العلائق والتراب وبقايا الأشياء فصار صافيًا تمام الصفاء. ولكن ما هٰذا المورد؟ هي الأنهار المذكورة في سورة محمد: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾[محمد:١٥]؛ هٰذا المورد المعين الذي لا ينقطع يؤخذ منه هٰذا: المقصود به الأنهار.

﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ حصول الصَّدع أو الصُّداع قد يكون منه وقد يكون عنه، وقال في الآية: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ وفي ذلك وجهان من التفسير:

الأول: أن تكون ﴿ عَنْهَا ﴾ بمعنىٰ: منها، أي: لا يصدعون منها، يعني لا يصيبهم صُداع منها، ولا تؤذي رءوسهم، وليست كما كان في الدنيا فإن من أكثر من شرب الخمر فإنه يصيبه الصداع ونحوه. فلا يصدعون منها أو بسببها.

والوجه الثاني: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أي إنها ملازمة لهم فلا يُفَرَّقُون عنها، أي لا يُحال بينهم وبينها، بل كلما احتاجوها و أرادوها حصلت لهم.

نكتفي بهٰذا، نكمل الأسبوع القادم، جعلنا وإياكم من أهلها، اللّٰهمَّ اجعلنا من أهلها، اللّٰهمَّ اجعلنا من أهلها.

سؤال:....

الجواب: هٰذا مثل ما يقال: أنبت المطر الأرض، من باب ذكر السبب، «للعامل فيهم أجر خمسين»قالوا: منا أو منهم؟ قال: «بل منكم» جهات الفضل وجهات التفاوت والرتب مختلفة، كونه

أجره يكون كأجر خمسين يعني في العمل الذي يعمله، إذا عمل عملا له أجر خمسين ممن عملوا مثل عمله من الأولين؛ لٰكِن جهات العمل عند الأولين أكثر من جهات العمل عند الآخرين، فالأولون من الصحابة والتابعين يعملون أشياء ليست عند المتأخرين؛ من المسابقة في الخيرات وأعمال القلوب المختلفة؛ من المحبة في الله جل وعلا، وحسن الظن به، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخشوع والإخبات الطمأنينة والسكينة، أعمال القلوب وأيضا أعمال الجوارح عند المتقدمين ما ليس عند المتأخرين، ولهٰذا حتىٰ في الصحابة أبو بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مثل ما قال شعبة القارئ المعروف: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولٰكِن بشيء وقر في قلبه. لأن أعمال القلوب عبادات، القلب وما فيه من أعمال، الأعمال عبادات عظيمة، محبة الله جل وعلا، والإنابة إليه، وحسن الظن به، والسكينة، والطمأنينة لو قيل له إن محمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ليس برسول والسماء وقعت علىٰ الأرض وجابوا دليلا عندهم مثلا ما ضره هٰذا ولا تغير، عنده شيء وقر في قلبه صار مثل الجبال، عنده مثل اليقين، هٰذا يكون بالمجاهدة أيضا.

فإذن الأعمال أعمال افيمان ليست أعمالا ظاهرة، الأعمال ظاهرة وباطنة، أعمال القلوب عظيمة الأثر، لهٰذا ابن القيم رحمه الله لما شرح «منازل السائرين» لشيخ الإسلام الهروي سماه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وجعلها كلها منازل قلبية.

المقصود أن حصول بعض الفضل للمتأخرين زيادة أجر للعامل فيهم مثل أجر خمسين، هٰذا لا يعني الفضل في المجموع وإنما يعني من عمل عملا له مثل هٰذا بخصوصه، لٰكِن المتقدمون عندهم من اليقين والأعمال ما ليس عند غيرهم.

ولقد أحسن بعض التابعين وأظنه الحسن حينما سئل فقيل له: ها نحن أكثر تعبُّدا من بعض صحابة رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فكيف صاروا أفضل؟، فقال: أنتم تتعبدون بعبادات كثيرة والدنيا في قلوبكم، وهم يتعبدون بعبادات قد تكون قليلة ولٰكِن الآخرة في قلوبهم، هٰذا فرق في الخشوع وفرق في الإقبال علىٰ الله جل وعلا، وفرق في التطامن وفي الذل والخضوع، هٰذه أمور عظيمة، قد يكون هٰذا بجنب هٰذا وبينما من الفرق ما الله به عليم، من جهة ذل القلب وخضوعه واستكانته، ورغبه فيما عند الله، وتوبته وإنابته، والله المستعان، الله يوفقنا وإياكم، ويعيننا من شر أنفسنا والشيطان.

الدرس الرابع

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ أَيْ: وَيَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَتَخَيَّرُونَ مِنَ الثِّمَارِ.

وَهٰذه الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ أَكْلِ الْفَاكِهَةِ عَلَىٰ صِفَةِ التَّخَيُّرِ لَهَا، وَيَدُلُّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ حَدِيثُ عِكْرَاش بْنِ ذُؤَيْبٍ الَّذِي رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَىٰ الْمَوْصِلِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ النَّرْسِي، حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سَوِيَّةَ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عِكْرَاش، عَنْ أَبِيهِ عِكْرَاش بْنِ ذُؤَيْبٍ، قَالَ: بَعَثَنِي بَنُو مُرَّةَ فِي صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَدِمْتُ عَلَيْهِ بِإِبِلٍ كأنها عروق الأرطىٰ، قال: «من الرجل؟»

قُلْتُ: عِكْرَاش بْنُ ذُؤَيْبٍ. قَالَ: «ارْفَعْ فِي النَّسَبِ»، فَانْتَسَبْتُ لَهُ إِلَىٰ «مُرَّةَ بْنِ عُبَيْدٍ»، وَهٰذه صَدَقَةُ «مُرَّةَ بْنِ عُبَيْدٍ». فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. قَالَ: هٰذه إِبِلُ قَوْمِي، هٰذه صَدَقَاتُ قَوْمِي. ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُوسَمَ بِمِيسَمِ إِبِلِ الصَّدَقَةِ وَتُضَمَّ إِلَيْهَا. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَانْطَلَقْنَا إِلَىٰ مَنْزِلِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَ: «هَلْ مِنْ طَعَامٍ؟» فَأُتِينَا بجفنة كَثِيرَةِ الثَّرِيدِ وَالْوَذَرِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهَا، فَأَقْبَلْتُ أُخَبِّطُ بِيَدِي فِي جَوَانِبِهَا، فَقَبَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُسْرَىٰ عَلَىٰ يَدِي الْيُمْنَىٰ، فَقَالَ: «يَا عِكْرَاش، كُلْ مِنْ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّهُ طَعَامٌ وَاحِدٌ». ثُمَّ أُتِينَا بِطَبَقٍ فِيهِ تَمْرٌ، أَوْ رُطَبٌ -شَكَّ عُبَيْدُ اللهِ رُطَبًا كَانَ أَوْ تَمْرًا- فَجَعَلْتُ آكُلُ مِنْ بَيْنِ يَدِي، وَجَالَتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الطَّبَقِ، وَقَالَ: «يَا عِكْرَاش، كُلْ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ فَإِنَّهُ غَيْرُ لَوْنٍ وَاحِدٍ». ثُمَّ أُتِينَا بِمَاءٍ، فَغَسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ وَمَسَحَ بِبَلَلِ كَفَّيْهِ وَجْهَهُ وَذِرَاعَيْهِ وَرَأْسَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «يَا عِكْرَاش، هٰذا الْوُضُوءُ مِمَّا غَيَّرَتِ النَّارُ».

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مُطَوَّلًا وَابْنُ مَاجَهْ جَمِيعًا، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ، عَنْ أَبِي الهزيل الْعَلَاءِ بْنِ الْفَضْلِ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا بَهْزُ بْنُ أَسَدٍ وَعَفَّانُ -وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَىٰ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ -قَالُوا: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، قَالَ: قَالَ أَنَسٌ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تُعْجِبُهُ الرُّؤْيَا، فَرُبَّمَا رَأَىٰ الرَّجُلُ الرُّؤْيَا فَسَأَلَ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، فَإِذَا أثنىٰ عليه معروفٌ، كَانَ أَعْجَبَ لِرُؤْيَاهُ إِلَيْهِ. فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُ كَأَنِّي أُتِيتُ فَأُخْرِجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ وَجْبَةً انْتَحَبَتْ لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فُلَانٍ، فسَمَّتْ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ بَعَثَ سِرِّيَّةً قَبْلَ ذَٰلِكَ، فَجِيءَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ طُلْسٌ تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُمْ، فَقِيلَ: اذْهَبُوا بِهِمْ إِلَىٰ نَهْرِ الْبَيْدَخِ -أَوْ: الْبَيْذَخِ-

قَالَ: فَغُمِسُوا فِيهِ، فَخَرَجُوا وَوُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَأُتُوا بِصَحْفَةٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بُسر، فَأَكَلُوا مِنْ بُسره مَا شاؤوا، فَمَا يُقَلِّبُونَهَا مِنْ وَجْهٍ إِلَّا أَكَلُوا مِنَ الْفَاكِهَةِ مَا أَرَادُوا، وَأَكَلْتُ مَعَهُمْ. فَجَاءَ الْبَشِيرُ مِنْ تِلْكَ السَّرِيَّةِ، فَقَالَ: كَانَ مِنْ أَمْرِنَا كَذَا وَكَذَا، وَأُصِيبَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ. حَتَّىٰ عَدَّ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَرْأَةَ فَقَالَ: «قُصِّي رُؤْيَاكِ» فَقَصَّتْهَا، وَجَعَلَتْ تَقُولُ: فَجِيءَ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ كَمَا قَالَ.

هٰذا لَفْظُ أَبِي يَعْلَىٰ، قَالَ الْحَافِظُ الضِّيَاءُ: وَهٰذا عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، حَدَّثَنَا رَيْحَانُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عَبَّادُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلابة، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إن الرَّجُلَ إِذَا نَزَعَ ثَمَرَةً فِي الْجَنَّةِ، عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَىٰ».

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والصلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه، وبعد؛

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ هٰذا فضلٌ جعله الله جل وعلا للسابقين المقربين، وليس في هٰذا اختصاص لهٰذا الصنف بهٰذا النعيم، ولكن لهم منه أعلاه وأعظم ما يُتنعَّم به منه، وإلا فقد دلت الآيات الأخر علىٰ أن أهل الجنة لهم فيها ما يشتهون، كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[يس] ونحو ذلك من الآيات.

لكن دلت هٰذه الآية كما نُص علىٰ هٰذا الفضل لهم علىٰ أنهم مختصون به من جهة الكمال، فلهم إذن من جهة النعيم الذي يشاركون فيه غيرهم أعلىٰ النعيم وأكمله، فيدل هٰذا علىٰ أن نعيم أهل الجنة قد يكون مشتركًا وقد لا يكون مشتركًا، يكون ثَمَّ نعيم خاص بالمقربين والسابقين وأهل الدرجات العالية، وثَمَّ نعيم أدنىٰ منه هو لمن هو دونهم في المنزلة، وثَمَّ نعيم مشترك بين الجميع، لكنهم يتفاوتون فيه أيضًا بحسب درجاتهم.

استدلال الحافظ ابن كثير بهٰذه الآية علىٰ أن تنويع الطعام والفاكهة في الدنيا أنه لا بأس به وليس من المذموم، وهو استدلال له مأخذ من أن هٰذا الفعل – يعني التخير من الفاكهة – جعله الله جل وعلا نعيمًا في الآخرة. وما كان من النعيم في الآخرة وكان في الدنيا ولم يمنع منه دليل فإن تعاطيه مباح، ولا يدخل هٰذا في إذهاب الطيبات في الحياة الدنيا التي جاءت في قوله جل وعلا في سورة الأحقاف: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا ﴾[الأحقاف:٢٠] فإن هٰذا في تعاطي ما لا يجوز تعاطيه مما هو في أصله مما يتنعم به الإنسان.

فإذن وجه الاستدلال مما ذكره الحافظ ابن كثير واضح وبيّن.

وأصل هٰذه المسألة راجع إلىٰ أن التوسع في المباحات وتعاطي كل مباح هل هو جائز شرعًا أم غير جائز، أم يقتصر فيه علىٰ ما في السنة؟، اختلف العلماء في هٰذه المسألة علىٰ أقوال:

أشهرها قول جمهور العلماء من أن تعاطي المباحات جائز، فكل ما أباحه الله جل وعلا، فللإنسان أن يفعله أو أن يأكله أو أن يتمتع به دون فرق ما بين مباحٍ ومباح، وأصول الأدلة من السنة دلت علىٰ هٰذا.

القول الثاني: أن تعاطي المباحات بكثرة يمنع منه فقد يصل النهي فيه والمنع إلىٰ التحريم؛ تحريم الصغائر، وهٰذا المنع والنهي ذهب إليه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ – كما هو معروف في اختياراته، واستدل له بقول الله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه] فقال: دلت الآية علىٰ نهي النبي عليه الصلاة والسلام –وفي نهيه نهي لأمته – أن يمد عينه إلىٰ أنواع المتاع، وأنواع المباحات.

قال ابن تيمية ما معناه أو ما حاصله: ولا بأس أن يتمتع بما لا يكون عادةً بمنظر حسن أو بزروع أو بزهور أو نحو ذلك، إذا لم يكن له عادة. وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا كان من جهة الكمال وصنيع الزاهدين الراغبين الذين كملت أحوالهم مقتدين في ذلك بما أمر الله جل وعلا به نبيه ﷺ فهٰذا بيِّن، لكن إن كان للأمة جميعًا فهٰذا يحتاج إلىٰ دليل آخر، وخاصةً إذا انضم إلىٰ ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم بعد رسول الله ﷺ لما انفتحت لهم الدنيا أخذوا منها المباح وتركوا ما لم يبح، فاتخذوا المزارع واتخذوا القصور والمساكن والمراكب الفارهة ونحو ذلك مما لا يكون حراما.

القول الثالث: أنه ينهىٰ عن التوسع في المباحات إذا كان يؤول إلىٰ محرم أو إلىٰ مكروه، أخذًا بأصل سد الذرائع، وهو أصل معمول به في مواضع، لكن لا ينبغي إطلاق القول بأن كل مباح التوسع فيه يُمنَع منه لأجل سد الذرائع، فهناك مباحات يُمنَع منها سدًّا للذرائع، وهناك مباحات مع التوسع فيها لا يُمنَع منها، لأن القاعدة ليس كل ذريعةٍ تمنع، وإنما تمنع بعض الذرائع، وهٰذا له بحث أصولي في أن الذرائع – كما هو معلوم – ثلاثة أقسام:

قسمٌ لا يجوز منعه بالاتفاق.

وقسمٌ يجب منعه بالاتفاق.

وقسمٌ مختلف فيه وهو سد الذرائع في غير الصورتين السابقتين.

وذكر الحافظ ابن كثير حديثًا والحديث واضح، لكن ذُكِرَ فيه مسألة الوضوء مما غيرت النار، وهٰذا الحكم منسوخ، وكان في أول الأمر يُتَوَضَّأ مما مست النار، سواء إن كان من اللحم أو من غيره، كان هٰذا في أول الإسلام، ثم بعد ذلك نُسِخ كما روىٰ جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كَانَ آخِرُ الأَمْرَيْنِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَرْكَ الْوُضُوءِ مِمَّا غَيَّرَتِ النَّارُ. وكان جمع من الصحابة بعده عليه الصلاة والسلام يأخذون بالحكم ما قبل النسخ، يعني يتوضؤون مما غيرت النار، لكن استقر إجماع الأمة أو شبه إجماعهم علىٰ ما دلت عليه الأدلة من عدم إيجاب الوضوء مما مست النار، ونسخ الحكم السالف.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا سَيَّارُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ الضَّبُعِيُّ، حَدَّثَنَا ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ طَيْرَ الْجَنَّةِ كَأَمْثَالِ الْبُخْتِ، يَرْعَىٰ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ هٰذه لَطَيْرٌ نَاعِمَةٌ فَقَالَ: «أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا -قَالَهَا ثَلَاثًا- وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَأْكُلُ مِنْهَا». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هٰذا الْوَجْهِ.

وَرَوَىٰ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْمَقْدِسِيُّ فِي كِتَابِهِ «صِفَةِ الْجَنَّةِ» مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ الْخُطَبِيِّ[1]، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْخُيُوطِي، عَنْ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ زُرْعَةَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: ذُكِرَتْ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ طُوبَىٰ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، هَلْ بَلَغَكَ مَا طُوبَىٰ؟» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «طُوبَىٰ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، مَا يَعْلَمُ طُولَهَا إِلَّا اللهُ، يَسِيرُ الرَّاكِبُ تَحْتَ غُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا، وَرَقُهَا الْحُلَلُ، يَقَعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ كَأَمْثَالِ الْبُخْتِ[2]». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هُنَاكَ لَطَيْرًا نَاعِمًا؟ قَالَ: «أَنْعَمُ مِنْهُ مَنْ يَأْكُلُهُ، وَأَنْتَ مِنْهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ».

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرَىٰ طَيْرَهَا نَاعِمَةً كَمَا أَهْلُهَا نَاعِمُونَ. قَالَ: «مَنْ يَأْكُلُهَا -وَاللهِ يَا أَبَا بَكْرٍ -أَنْعَمُ مِنْهَا، وَإِنَّهَا لَأَمْثَالُ الْبُخْتِ، وَإِنِّي لَأَحْتَسِبُ عَلَىٰ اللهِ[3] أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا يَا أَبَا بَكْرٍ».

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنِي مُجَاهِدُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا مَعْنُ بْنُ عِيسَىٰ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ[4]، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَوْثَرِ فَقَالَ: «نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ[5] رَبِّي عَزَّوَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، فِيهِ طُيُورٌ أَعْنَاقُهَا يَعْنِي كَأَعْنَاقِ

---

(١) الأسماء لا يدخلها القياس؛ فلا يدل عليها ما قبلها ولا ما بعدها، ولذلك سبيلها الحفظ.

الأسماء المشكلة تراجعونها في «الأنساب» للحافظ عبدالكريم السمعاني، أو في «اللباب المختصرة» لابن الأثير، أو في كتب التراجم «الميزان» أو في كتب المشتبه.. ومن الكتب التي تضبط لك المختلف أحيانا «القاموس المحيط» وشرحه للزبيدي.

(٢) البخت الإبل العظيمة، الضخمة، مثل هٰذا بالبخت.

(٣) (أَحْتَسِبُ عَلَىٰ اللهِ) يعني أرجو منه. غير (أحتسب) يعني أرغب الأجر.

(٤) (ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ) يعني ولد أخيه، يعني يصير ابن شهاب عمه.

(٥) يصح القراءتان (أَعْطَانِيهِ) و (أَعْطَانِيهُ) فيه قراءتان في قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾[الفتح:١٠]، و﴿عَلَيْهِ اللهَ﴾ وأن الأصل البناء علىٰ المسر وقد تضم، هٰذا كله سائغ.

الْجُزُرِ». فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهَا لَنَاعِمَةٌ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آكِلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا».

وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ القَعْنَبِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَسٍ، وَقَالَ: حَسَنٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّنَافِسي، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ الْوَلِيدِ الوَصَّافِي، عَنْ عَطِيَّةَ العَوْفِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَطَيْرًا فِيهِ سَبْعُونَ أَلْفَ رِيشَةٍ، فَيَقَعُ عَلَىٰ صَحْفَةِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَنْتَفِضُ، فَيُخْرِجُ مِنْ كُلِّ رِيشَةٍ -يَعْنِي: لَوْنًا-أَبْيَضَ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَلْيَنَ مِنَ الزُّبْدِ، وَأَعْذَبَ مِنَ الشَّهْدِ، لَيْسَ مِنْهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ صَاحِبَهُ ثُمَّ يَطِيرُ».

هٰذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا، والوَصَّافي وَشَيْخُهُ ضَعِيفَانِ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:

حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ -كَاتِبُ اللَّيْثِ-حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، حَدَّثَنَا خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ كَعْبٍ، قَالَ: إِنَّ طَائِرَ الْجَنَّةِ أَمْثَالُ الْبُخْتِ، يَأْكُلُ مِمَّا خُلِقَ مِنْ ثَمَرَاتِ الْجَنَّةِ، وَيَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَصْطَفِفْنَ لَهُ، فَإِذَا اشْتَهَىٰ مِنْهَا شَيْئًا أَتَاهُ حَتَّىٰ يَقَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَأْكُلُ مِنْ خَارِجِهِ وَدَاخِلِهِ ثُمَّ يَطِيرُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ. صَحِيحٌ إِلَىٰ كَعْبٍ.

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ: حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ خَلِيفَةَ، عَنْ حُمَيْدٍ الْأَعْرَجِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَىٰ الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ، وَتَقْدِيرُهُ: وَلَهُمْ فِيهَا حُورٌ عِينٌ. وَقِرَاءَةُ الْجَرِّ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْإِعْرَابُ عَلَىٰ الْإِتْبَاعِ بِمَا قَبْلَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[الْمَائِدَةِ: ٦]، وَكَمَا قَالَ: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾[الإِنْسَانِ:٢١].

وَالِاحْتِمَالُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَطُوفُ بِهِ الْوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ عَلَيْهِمُ الْحُورُ الْعِينُ، وَلَكِنْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْقُصُورِ، لَا بَيْنَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، بَلْ فِي الْخِيَامِ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْخُدَّامُ بِالْحُورِ الْعِينِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ أَيْ: كَأَنَّهُنَّ اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ فِي بَيَاضِهِ وَصَفَائِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي «سُورَةِ الصَّافَّاتِ» ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصَّافَّاتِ] وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ «الرَّحْمَنِ» وَصْفُهُنَّ أَيْضًا؛ وَلِهٰذا قَالَ:

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أَيْ: هٰذا الَّذِي أَتْحَفْنَاهُمْ بِهِ مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَىٰ مَا أَحْسَنُوا مِنَ الْعَمَلِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ أَيْ: لَا يَسْمَعُونَ فِي الْجَنَّةِ كَلَامًا لَاغِيًا، أَيْ: غَثًّا خَالِيًا عَنِ الْمَعْنَىٰ، أَوْ مُشْتَمِلًا عَلَىٰ مَعْنًىٰ حَقِيرٍ أَوْ ضَعِيفٍ، كَمَا قَالَ: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ [الْغَاشِيَةِ] أَيْ: كَلِمَةً لَاغِيَةً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ أَيْ: وَلَا كَلَامًا فِيهِ قُبْحٌ، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ أَيْ: إِلَّا التَّسْلِيمَ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، كَمَا قَالَ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إِبْرَاهِيمَ] وَكَلَامُهُمْ أَيْضًا سَالِمٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالْإِثْمِ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ جعل التخير للفاكهة، وجعل الاشتهاء للطير، وهٰذا تفريق فيه ايضا النعيم؛ لأن التخير في الفاكهة أبلغ من التخير في الطير، فإن الأصل في الفاكهة التنويع الكثير، واختلاف الطعوم، وتنوع الألوان إلىٰ آخره، فهٰذا يُناسِب أن يكون بين يديه الكل ثم هو يتنعم بأشكالها وألوانها وطعومها المختلفة. وأما الطير؛ طير الجنة فهو عظيم كما وصفه النبي ﷺ: «كَأَمْثَالِ الْبُخْتِ» أي كالجمال العظيمة، فهو إذا اشتهىٰ نوعًا منها فإن هٰذا النوع يأتيه صالحًا للأكل كما جاء في رواية: «إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَىٰ الطَّيْرِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَجِيءُ مَشْوِيًّا».

فهٰذا التفريق ما بين الفاكهة واللحم مُناسِبٌ لحالة الكمال في التنعم، وهٰذا يعرفه الإنسان في الدنيا، فإن كثرة الأنواع المختلفة في طعومها وألوانها وأشكالها، وجودها بين الإنسان ليختار منها ما شاء، هٰذا لا شك أنه نعيم، وحصول ما يشتهي من اللحم في ساعته، هٰذا أيضًا مزيد نعيم.

واستدلت طائفة من العلماء بهٰذه الآية علىٰ أن المناسب أن تقدم الفاكهة علىٰ اللحم في الأكل، حتىٰ جعله الأطباء المتقدمين صحيحًا في أنه مما يصح البدن أن تقدم الفاكهة علىٰ اللحم ولا تؤخر؛ لأن الله جل وعلا قدمها في الجنة، وهٰذا يعني أنها الأفضل. لكن هٰذا استدلال ناقص ولا ينبغي أن يستدل به؛ لأن ذكر الأشياء هٰذه جاءت بواو العطف، وليست لأجل الترتيب، ثم أيضًا كون الفاكهة إذا كانت بعد الطعام أنفع، وهٰذا أيضا قد لا يكون صحيحا عند كثير من الأطباء؛ بل قال بعض الأطباء المعاصرين في بحوث جيدة: إن الفاكهة مع الطعام بأي نوع منه -مع اللحم أو المشويات- مضرة، والأنسب في الفاكهة أن تكون وحدها ولا تخلط باللحم أو بغيره؛ بل تؤكل تفكها وحدها. فالاستدلال بالآية لا ينبغي أن يُجعَل مُسَلَّمًا به علىٰ هٰذا كما هو شائع عند طائفة من الباحثين أو الوعّاظ.

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لما ذكر المسألة في «زاد المعاد» في الطب النبوي قرر ما ذكره أطباء زمانه وما قبله

لكن هٰذا محله التجربة والعلم وليس في الآية ما يدل علىٰ التقديم، أي تقديم العرض، تقديم الأكل، وإنما فيها أنهم يؤتون بالفاكهة، ويؤتون باللحم إذا اشتهوا.

قوله تعالىٰ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ واضح لكم الحور، والعِين هٰذه من صفة نساء أهل الجنة؛ لأن نساء أهل الجنة علىٰ قسمين:

نساء الخدمة أي لَسن من أهل الأرض، إنما خلقهن الله جل وعلا للجنة ليتنعم بهن أهل الجنة وليخدموا أهل الجنة، هؤلاء هن اللاتي يقال لهن: الحور العين، وسُمِّين أو وُصِفن بأنهن حور عين لأجل جمال أعينهن، فمعنىٰ ﴿عِينٌ﴾ أي كبيرات الأعين وجميلات الأعين، ﴿وَحُورٌ﴾ أي في أعينهن حَوَرٌ، وهٰذا يزيد في الجمال، وُصِفنَ بهٰذا الوصف لمزيد اختصاص بهٰذا الجمال. وقد جاء في الصحيح أن نساء الجنة يعني الحور العين يُرَىٰ مخ سوقهن من وراء ثيابهن أو من وراء اللحم. وفي هٰذا أيضًا الصفاء والنقاء التام، ووصفن بأوصاف كثيرة جاءت في الأدلة.

المقصود أن نساء الجنة الحور العين لسن من أهل الأرض، وإنما هنَّ من خلق الله جل وعلا في الجنة، وليس لهن حد محدود، أي يختلف أهل الجنة من عنده ألف منهن، ومن عنده ألفان ومنهم من عنده أكثر أو أقل، لأنه من تمام التنعم، وهن للخدمة وأيضًا للتلذذ جميعًا، فيخدمن أزواجهن، وكذلك يتلذذ بهن من منّ الله جل وعلا عليه بدخول الجنة والنجاة من النار. جعلنا الله وإياكم من أهل الجنة.

الطير لا ينتهي، الطير الذي يقع علىٰ حافة الإناء، يأكل منه، كل ما أخذ منه أكله، وهو باقي علىٰ حاله، وليس في الجنة من دنيانا إلا الأسماء، لا نقدر أن نتصور لٰكِن تقريبا، هٰذا تقريب.

أهل الوهم والتخييل يقولون: أن هٰذه كلها أمثلة لتنشيط السامع، والعياذ بالله، وأما الحقيقية فهي تقريب، يقولون: هو تقريب للنعيم، يكون لا شك أنشط في العبادة، ويرغب الرجاء ويتنافس الناس وكما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[المطففين]، يعني الإنسان جبل علىٰ حب أشياء لٰكِن هٰذا تقريب، ليست الحقائق هي الحقائق، أنت ألآن في الدنيا تصف اشياء بهٰذا الوصف، تقول هٰذا لباس، لٰكِن اين اللباس من اللباس، فيه لباس كذا وفيه لباس كذا، مثلا السيارة هل السيارة مثل السيارة؟

ففي الدنيا جل الله جل وعلا ما يستعمله الناس متفاوت، فلما جعل الله جل وعلا الأشياء متفاوتة في الدنيا دل علىٰ عظم التفاوت ما بين ما في الدنيا وبين ما في الجنة، وهٰذا معنىٰ قول ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- ليس في الجنة من دنياكم إلا الأسماء، يعني فيه اشتراك في الأصل، اشتراط في المعنىٰ لٰكِن

الحقيقة مختلفة تماما، هٰذا الطير الذي تسأل عنه، كيف يكون، كيف أنه يأتي وينتفظ علىٰ طرف الإناء، ثم يأخذ منه ما يريد ويأكل ويشبع ثم يقوم الطير ويطير، هٰذا لا تستطيع تكيفه، ولٰكِن الذين ينفون هٰذه الأشياء لا يؤمنون بكل الغيب، إنما يقولون: إنما هٰذه جاءت علىٰ وجه التخييل والعياذ بالله، ومنهم العقلانيون في هٰذا الزمن بعضهم يتعرض لهٰذه المسائل وأصلها عند المعتزلة الذين ينفون كل ما خالف العقل من أمور الغيب، نسأل الله العافية.

سؤال: أجسام أهل الجنة؟

الجواب: الأجسام مختلفة، مثل جسم آدم عليه السلام طويل، الإنسان إذا بعث صار طويل مختلف، يغير الله جل وعلا الأبدان، يغير الأجسام، يغير السماء، يغير الأرض، كلها تتغير.

سؤال: متىٰ تقال: الله ورسوله أعلم؟.

الجواب: (الله ورسوله أعلم)، هٰذا أدب فيمن لا يعلم في حياته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إذا سئل عن شيء لا يعلمه الإنسان في حياته يقول الصحابي: الله ورسوله أعلم، سواء في حضرته يعني أمامه، كما في الحديث هٰذا، أو سئل ليس أمام النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. أما بعد وفاته فلا يقال إلا: الله أعلم. لا يقال: الله ورسوله أعلم، لأنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- علمه انتهىٰ، بما علمه الله جل وعلا في حياته، دار التكليف بالنسبة له -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- دار العلم ودار نفس الناس والإفادة، هٰذه في الدنيا، أما بعد وفاته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أجمع أهل السنة علىٰ أن -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- انقطع بموته وجوب الإبلاغ عليه، وانقطع بموته علمه بما يجري في الناس إلا بما علمه الله جل وعلا، فليس هو -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حاضرا في كل مكان يسمع، وليس -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يحضر إذا صلي عليه، ويعلم ما يحصل، وإنما كما جاء في الحديث «تعرض عليه أعمال الأمة» بواسطة ملك، المقصود أن (الله ورسوله أعلم) في حياته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أما بعد وفاته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فهو في أعلىٰ عليين في الفرودوس الأعلىٰ وجسده في الأرض.

سؤال: إذا قال قائل في خطبته: ما كان من الصواب فمن الله، وما من خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

الجواب: هٰذا صحيح، قالها أبو بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- والمعنىٰ صحيح، واضح، لأن الأصل ما يقوله المسلم ما يوافق كلام الله وكلام رسوله، فإذا قال قولا الأصل فيه إن كان شرعيا ما دل عليه الدليل، كلام

الله جل جلاله أو كلام رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإن كان ثم صواب فهو من الله جل جلاله، فهو الذي وفق ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾[الليل]، بين الإنسان ووضح له وألهمه ووفقه حتىٰ أدرك هٰذا الصواب ولم يستغلق عليه، فأي صواب يقوله اي مصيب فهو من الله جل جلاله، منة وتكرما، ولو حجز علىٰ عقله وقلبه ما أدرك شيئا، كل صواب من الله جل وعلا، يستحق الشكر عليه، الواحد لحظة يلحظ أنه فتح له وفهم وفي لحظة استغلق عليه ثم يفهم، هٰذا كما قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر]، قد ذكر عن ابن تيمية أنه يقول: ربما استعصت علي المسألة من العلم، فأستغفر الله ألف مرة حتىٰ يفتح لي مغلقها، وذلك أن عدم الفهم الغالب بسبب الران علىٰ القلب والاستغفار تذلل لله جل وعلا وتقرب حتىٰ يفاح الرب جل جلاله علىٰ العبد، ثم يقول: وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، يعني أني اجتهدت اجتهادا فأخطأت ولا يجوز أن تنسب خطئي إلىٰ الشرع، لأن المفتي أو المتكلم يتكلم بحجة في الغالب أنه الأصل فيه أنه يقول بحجة وبيان من كلام الله جل وعلا أو من الحديث الصحيح، فإذا اجتهد وأخطأ لا شك أنه من نفسه ومن الشيطان، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء:٧٩]، يعني من أمر يسوؤك ومن الغلط وعدم الإدراك.

وهٰذا يستدل به أن المفتي لا يقول: هٰذا حكم الله وحكم رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أو يأتي القاضي ويقول: هٰذا قضاء الله وقضاء رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المسألة وهي فيها اجتهاد منه، وليس فيها نص، مثل ما يتحمس بعضهم وينسب إلىٰ الشرع قطعا مسألة إجتهادية ليس فيها إجماع، يقول: هٰذا حكم الشرع، والمسألة اجتهادية ليس فيها إجماع، الأدب أن تقول: الأصول الشرعية دلت علىٰ كذا، الأدلة دلت علىٰ كذا، لٰكِن حكم الشرع يعني حكم الله وحكم رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. الأدب في نسبة الشيء إلىٰ الشرع ونسبة الأحكام إلىٰ الله ورسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هٰذا من أدب السلف، هو -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الذي أرشد إليه قال: «أنزلهم علىٰ حكمك لا تنزلهم علىٰ حكم الله ورسوله، فإنك لا تدري.. ».

الدرس الخامس

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مَآلَ السَّابِقِينَ -وَهُمُ الْمُقَرَّبُونَ- عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ -وَهُمُ الْأَبْرَارُ- كَمَا قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَان: أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَنْزِلَةٌ دُونَ الْمُقَرَّبِينَ، فَقَالَ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ أَصْحَابُ الْيَمِينِ؟ وَمَا حَالُهُمْ؟ وَكَيْفَ مَآلُهُمْ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وعِكْرِمَة، وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْأَحْوَصِ، وقسامة بْنُ زُهَير، والسَّفر بْنُ نُسَير، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ كَثِيرٍ، والسُّدِّيّ، وَأَبُو حَرْزَة، وَغَيْرُهُمْ: هُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الْمُوقَر بِالثَّمَرِ. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ عِكْرِمَة، وَمُجَاهِدٍ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ أَيْضًا: كُنَّا نُحَدِّث أَنَّهُ الْمُوقَر الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هٰذا وَهٰذا فَإِنَّ سِدْرَ الدُّنْيَا كَثِيرُ الشَّوْكِ قَلِيلُ الثَّمَرِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَىٰ عَكْسٍ مِنْ هٰذا لَا شَوْكَ فِيهِ، وَفِيهِ الثَّمَرُ الْكَثِيرُ الَّذِي قَدْ أَثْقَلَ أَصْلَهُ، كَمَا قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنُ سَلْمَانَ النَّجَّادُ(١):

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ هُوَ الْبَغَوِيُّ، حَدَّثَنِي حَمْزَةُ بْنُ عَبَّاسٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، أَخْبَرَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ لَيَنْفَعُنَا بِالْأَعْرَابِ وَمَسَائِلِهِمْ؛ قَالَ: أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ يَوْمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَكَرَ اللهُ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً تُؤْذِي صَاحِبَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا هِيَ؟». قَالَ: السِّدر، فَإِنَّ لَهُ شَوْكًا مُوذِيًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾، خَضَد اللهُ شَوْكَهُ، فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً، فَإِنَّهَا لَتُنْبِتُ ثَمَرًا تَفَتَّق الثمرةُ مِنْهَا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنْ طَعَامٍ، مَا فِيهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الْآخَرَ».

طَرِيقٌ أُخْرَىٰ: قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُصَفَّىٰ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُبَارَكِ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ حَمْزَةَ، حَدَّثَنِي ثَوْرُ بْنُ يَزِيدَ، حَدَّثَنِي حَبِيبُ بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ عُتْبة بن عبد السُّلَمِيّ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْمَعُكَ تَذْكُرُ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً لَا أَعْلَمَ شَجَرَةً أَكْثَرَ شَوْكًا مِنْهَا؟ يَعْنِي: الطَّلْحَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ مِنْهَا ثَمَرَةً مِثْلَ خُصْوَةِ التَّيْسِ الْمَلْبُودِ، فِيهَا سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ، لَا يُشْبِهُ لَوْنٌ آخَرَ».

---

(١) من أصحاب الإمام أحمد، مشهور.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾: الطَّلْحُ: شَجَرٌ عِظَامٌ يَكُونُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، مِنْ شَجَرِ العضَاه، وَاحِدَتُهُ طَلْحَةٌ، وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ، وَأَنْشَدَ ابْنُ جَرِيرٍ لِبَعْضِ الْحُدَاةِ:

بَشَّرَهَا دَليلها وَقَالَا غَدًا تَرينَ الطَّلْحَ والجبَالا

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أَيْ: مُتَرَاكِمُ الثَّمَرِ، يُذَكِّرُ بِذَلِكَ قُرَيْشًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْجَبُونَ مِنْ وَجّ، وَظِلَالِهِ مِنْ طَلْحٍ وَسِدْرٍ.

وَقَالَ السُّدّي: ﴿مَّنضُودٍ﴾: مَصْفُوفٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُشْبِهُ طَلْحَ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ لَهُ ثَمَرٌ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ.

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالطَّلْحُ لُغَةٌ فِي الطَّلْعِ.

قُلْتُ: وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ شَيْخٍ مِنْ هَمْدَانَ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: هٰذا الْحَرْفُ فِي ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ قَالَ: طَلْعٌ مَنْضُودٌ، فَعَلَىٰ هٰذا يَكُونُ هٰذا مِنْ صِفَةِ السِّدْرِ، فَكَأَنَّهُ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ مَخْضُودٌ وَهُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ لَهُ، وَأَنَّ طَلْعَهُ مَنْضُودٌ، وَهُوَ كَثْرَةُ ثَمَرِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ إِدْرِيسَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ إِيَاسٍ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ قَالَ: الْمَوْزُ. قَالَ: وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَالْحَسَنِ، وعِكْرِمَة، وَقُسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ، وقَتَادَةَ، وَأَبِي حَزْرَة، مِثْلُ ذَلِكَ، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ -وَزَادَ فَقَالَ: أَهْلُ الْيَمَنِ يُسَمُّونَ الْمَوْزَ الطَّلْحَ. وَلَمْ يَحْكِ ابْنُ جَرِيرٍ غَيْرَ هٰذا الْقَوْلِ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما وفهما وعملا يا أرحم الراحمين، اللّٰهمَّ هيئ لنا من أمرنا رشدا، واغفر لنا ولوالدينا ولمن له حق علينا.

أما بعد؛ فبعد أن ذكر الله جل وعلا القسم الأول من أهل الجنة وهم السابقون المقربون الذين سبقوا بالخيرات وتنافسوا في القرب من الرَّحمٰن جل وعلا فجعلهم الله ﷻ مقرَّبين منه في أعلىٰ الجنة، وجعلهم في نعيم ليس مماثلًا لنعيم غيرهم ممن هم دونهم من أصحاب اليمين، فذكر القسم الأول وهو السابقون المقربون، ثم ذكر القسم الثاني: وهم أصحاب اليمين؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧﴾وهٰذا كثير في القرآن أن يذكر الشيء أو الحال ثم يُتبع بالاستغراب والاستعجاب من حاله، وهو المجيء في صيغة سؤال، ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧﴾، ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾[القارعة]. وهٰذا كثير في القرآن، وله فائدة

عظيمة من الناحية البلاغية، كأن إجابة هٰذا السؤال ﴿ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ ﴾ ليست محصورة؛ بل إجابته كثيرة طويلة لتعدد الحال وتنوع الصفات، وتنوع المقام، فكأنه أعظم من أن يَذكر وصفه في شيء واحد، فعظمه الله جل وعلا بهٰذا السؤال الذي لا يمكن الإجابة عليه بجواب واحد؛ فقال سبحانه: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧ ﴾ يعني أنهم في حالٍ عظيمة متنوعة لا يدرك تفاصيل حالهم ولا تنوع نعيمهم. ثم فصَّل فقال: ﴿ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ ﴾ إلىٰ آخره.

وأصحاب اليمين هم المقتصدون الذين ذكرهم الله جل وعلا في سورة فاطر فقال: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾[فاطر:٣٢]، والمقتصدون هم الذين كان عملهم قصدًا لتجنب الحرام وامتثال الأمر مع التقرب بشيء من النوافل، لكن ليس عندهم مسابقة ومسارعة في كل ميدان خير من النوافل؛ بل اقتصدوا واقتصروا علىٰ أداء الواجبات والانتهاء عن المحرمات مع فعل بعض ما جعله الله جل وعلا من النوافل.

وسُمّوا أصحاب اليمين مع أن السابقين والمقربين أيضًا يأخذون كتابهم باليمين من جهة التقسيم، فالناجون من العذاب يأخذون كتابهم باليمين، فليس ثم إلا فريقان فريق يأخذ كتابه باليمين، وفريق يأخذ كتابه بالشمال، وسيأتي وصف الذين يأخذون كتابهم بالشمال وهم الكفار.

وأما الذين يأخذون كتابهم باليمين فهم أهل الجنة الذين كتب الله لهم النجاة، وهم فريقان أيضا: السابقون المقربون، وكذلك المقتصدون الذين سُموا هنا أصحاب اليمين، وكذلك أيضًا من ظلم نفسه وغفر الله له أو عذبه بما شاء ثم ينجيه إلىٰ الجنة.

فإذن من كتب الله جل وعلا له الجنة يأخذ كتابه باليمين، ومن أخذ كتابه بالشمال فهم أهل النار، وهم الكفار؛ ولكن هٰذا القسم خصهم الله جل وعلا بأنهم أصحاب اليمين لأجل هٰذا المعنىٰ، وهو أنهم في درجة دون السابقين المقربين، وهم الذين يأخذون كتابهم باليمين مقابلة بأخذ الكفار كتابهم بشمالهم.

ثم ذكر نعيمهم وبعض ما أعد الله لهم فقال سبحانه: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ ﴾ سدر الدنيا موصوفٌ بأنه قليل الثمر كثير الشوك، وليس بطيب الثمار، أي ليس كأطيب الثمار، وهو كذلك مؤذٍ من جِهة قطف ثمره وكثرة شوكه، فجعل الله جل وعلا سدر الجنة مخالفًا لذلك، ففيه السلامة، وفيه كثرة الثمر، خضد شوك؛ سلم من الشوك، وكذاك كثر شمره، وكثرة الثمر مفهومة من قوله: ﴿مَّخۡضُودٖ ﴾، لأن المقصود بها أنه

سلم من العيب الذي في سدر الدنيا، وهو كثرة الشوك وقلة الثمر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩﴾ وعلىٰ القراءة الأخرىٰ ﴿وَطَلۡعٖ﴾ وهي ليست من القراءات المشهورة، فيعني هٰذا أنه تتمة لسدر، أي: سدر مخضود وطلع، أي إن ثمره منضود متراص. وعلىٰ القراءة المتواترة ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩﴾ فالمشهور من تفاسير السلف أن الطلح هو شجر الموز، وهو الذي ينضدُ فيه الموز من جهة الكثرة والتراص، لأن شجرة الموز يقال لها: طلحة.

والتفسير الثاني أن الطلح هو الطلح المعروف، وهو من الأشجار الكبيرة المعروفة في البادية والصحراء وقرب الجبال وفي الأودية، وهو ليس بشجر ذي ثمر ولا حسن الورق؛ لكنه وصفه بقوله: ﴿مَّنضُودٖ﴾ أي نُضِدَ فيه ثمره، هٰذا من مخالفة طلح الدنيا، فجعل الله جل وعلا نعيم أهل اليمين في الجنة بأشياء اختلف وصفها عما كانت عليه في الدنيا، فجعل الله جل وعلا نعيم أهل اليمين في الجنة أشياء بعكس مما هي في الدنيا؛ السدر حالته في الدنيا ضعيفة جعله الله جل وعلا نعيما؛ وهٰذا يقتضي اختلاف الحال واختلاف الوصف، وكذلك الطلح جعله الله لهم في الجنة بخلاف حاله في الدنيا علىٰ القول الثاني.

وهنا مسألة ينبغي التنبه لها والتنبيه عليها، وهي أن الشواهد العربية التي تورد لبيان المعنىٰ في القرآن شواهد من الشعر، وقد اختلف فيها العلماء: هل يستشهدُ لمعاني القرآن بالشعر أم لا يستشهد؟ علىٰ قولين:

القول الأول: أنه لا بأس به إذا كان المراد بذلك إيضاح المعنىٰ، وقد استعملها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إقرارا واستعملها أيضًا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الأسئلة المشهورة بأسئلة نافع بن الأزرق، واستعملها أئمة أهل العلم من أهل السنة؛ ومن أشهرهم ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره، وقد أكثر من ذلك.

والقول الثاني: أن هٰذا ليس بجيد إلا عند الحاجة الملحة، أي عند إرادة إثبات المعنىٰ عند مجادل أو عند من لا يقتنع إلا بمثل هٰذا الإيراد، وهٰذا قول طائفة من أهل العلم، ويميل إليه العلامة أحمد بن فارس صاحب كتاب «مقاييس اللغة» و«مجمل اللغة».

وإذا أوردوا البيت أو الأبيات من الشعر للاستشهاد، فإنه تارة لا يكون المعنىٰ فيها واضحًا، وإنما لفهم استعمال العرب، وفهم من يفهم الشعر لأصل المعنىٰ، مثل ما أورد هنا، قال الشاعر:

بَشَّرَهَا دَلِيلُهَا وَقَالَا غَدًا تَرَيْنَ الطَّلْحَ وَالْجِبَالَا

ما الدليل من هٰذا علىٰ أن الطلح هو شجر العضاه المغاير لشجر الموز؟ الدليل منه أنه قرن ما بين الطلح والجبال، وهٰذا يعرفه أهل البادية يرون هٰذا وهٰذا؛ يعني الوادي وما فيه من الطلح في جنباته، فالشاعر يصف حاله الموجودة في بلده أو في أرضه؛ لكن من حيث المعنىٰ لا يوجد فيه أن المراد بالطلح هنا الشجرة التي وصفها هكذا، فمن الممكن أيضا أن ترىٰ الموز والجبال، لكنه أراد أن يصف حاله، والعرب يعني أهل البادية ليسوا بأهل مزارع، ليسوا أهل زراعة، إنما هم أهل تنقل وترحال، وهو يصف ما يجده في تنقله.

ومنضود من النَّضِّ وهو الرَّصُّ والجمع، يعني أن ثمره مرصوص هٰذا بجانب هٰذا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾: قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -يبلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ- قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، اقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْرَجِ، بِهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُرَيج، حَدَّثَنَا فُلَيح، عَنْ هِلَالِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَان، عَنْ فُلَيح بِهِ، وَكَذَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَر، عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَكَذَا رَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعِيدٍ المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَوْفٍ، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيرة بِهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ وَحَجَّاجٌ قَالَا حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، سَمِعْتُ أَبَا الضَّحَّاكِ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي هُرَيرة، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ، أَوْ مِائَةَ سَنَةٍ، هِيَ شَجَرَةُ الْخُلْدِ».

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظلها مائة عام ما يقطعها، واقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ عَبْدَةَ وَعَبْدِ الرَّحِيمِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ سُلَيْمَانَ، بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا مِهْرَان، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ زِيَادٍ -مَوْلَى بَنِي مَخْزُومٍ- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظلها مائة سنة، اقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾. فَبَلَغَ ذَلِكَ كَعْبًا فَقَالَ: صَدَقَ، وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى وَالْفُرْقَانَ عَلَى مُحَمَّدٍ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا رَكِبَ حِقَّةً أَوْ جَذَعة، ثُمَّ دَارَ حَوْلَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ مَا بَلَغَهَا حَتَّى يَسْقُطَ هَرَمًا، إِنَّ اللهَ غَرَسَهَا بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ، وَإِنَّ أَفْنَانَهَا لَمِنْ وَرَاءِ سُورِ الْجَنَّةِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ نَهْرٌ إِلَّا وَهُوَ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَىٰ الْمَوْصِلِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مِنْهَال الضَّرِيرُ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيع، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾، قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا».

وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ رَوْحِ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ زُرَيع، وهكذا رواه أبو داود الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ دَاوَر الْقَطَّانِ، عَنْ قَتَادَةَ بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ مَعْمَر، وَأَبُو هِلَالٍ، عَنْ قَتَادَةَ، بِهِ. وَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا».

فَهٰذا حَدِيثٌ ثَابِتٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَلْ مُتَوَاتِرٌ مَقْطُوعٌ بِصِحَّتِهِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ النُّقَّادِ، لِتَعَدُّدِ طُرُقِهِ، وَقُوَّةِ أَسَانِيدِهِ، وَثِقَةِ رِجَالِهِ.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو حُصَين قَالَ: كُنَّا عَلَىٰ بَابٍ فِي مَوْضِعٍ، وَمَعَنَا أَبُو صَالِحٍ وَشَقِيقٌ -يَعْنِي: الضَّبِّيَّ- فَحَدَّثَ أَبُو صَالِحٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَة قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَامًا. قَالَ أَبُو صَالِحٍ: أتكَذّب أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: مَا أُكَذِّبُ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَلَكِنِّي أكذِّبك أَنْتَ. فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ الْقُرَّاءِ يَوْمَئِذٍ.

قُلْتُ: فَقَدْ أَبْطَلَ مَنْ يُكَذِّبُ(١) بِهٰذا الْحَدِيثِ، مَعَ ثُبُوتِهِ وَصِحَّتِهِ وَرَفْعِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْفُرَات الْقَزَّاز، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ إِلَّا سَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ». ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِي، عَنْ زَمْعَةَ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ وَهْرَامَ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الظِّلُّ الْمَمْدُودُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ عَلَىٰ سَاقٍ ظِلُّهَا، قَدْرُ مَا يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي نَوَاحِيهَا مِائَةَ عَامٍ. قَالَ: فَيَخْرُجُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ؛ أَهْلُ الْغُرَفِ وَغَيْرُهُمْ، فَيَتَحَدَّثُونَ فِي ظِلِّهَا. قَالَ: فَيَشْتَهِي بَعْضُهُمْ وَيَذْكُرُ لَهْوَ الدُّنْيَا، فَيُرْسِلُ اللهُ رِيحًا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَحَرَّكُ تِلْكَ الشَّجَرَةُ بِكُلِّ لَهْوٍ فِي الدُّنْيَا.

---

(١) (أَبْطَلَ مَنْ يُكَذِّبُ) يعني صار باطلا، أبطل من يكذبه؛ يعني قال قولا باطلا.

هٰذا أَثَرٌ غَرِيبٌ وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيّ حَسَنٌ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ يَمَانٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ قَالَ: سَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ بُنْدَار، عَنِ ابْنِ مَهْدِيٍّ، عَنْ سُفْيَانَ، مِثْلَهُ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:

حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا مِهْرَان، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ قَالَ: خَمْسُمِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أبو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ، حَدَّثَنَا حُصَيْنُ بْنُ نَافِعٍ، عَنِ الحسن في قوله اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ قَالَ: فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظلها مائة سنة لا يقطعها. وَقَالَ عَوْفٌ عَنِ الْحَسَنِ: بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ شَبِيبٌ عَنْ عِكْرِمَة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي الْجَنَّةِ شَجَر لَا يَحْمِلُ، يُستظَلُّ بِهِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، والسُّدِّيّ، وَأَبُو حَرْزَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ لَا يَنْقَطِعُ، لَيْسَ فِيهَا شَمْسٌ وَلَا حَرٌّ، مِثْلُ قَبْلِ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْجَنَّةُ سَجْسَج، كَمَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْآيَاتُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾[النِّسَاء]، وَقَوْلِهِ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[الرَّعْد:٣٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝٤١﴾[الْمُرْسَلَات] إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

قال ﷻ في تتمة وصف نعيم أهل اليمين: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ وسمعت أن السلف مجمعون علىٰ أن الظل الممدود المراد به شجرة الخلد التي في الجنة، وهي التي يمشي الراكب في ظلها مائة عام فلا يقطعها، تقوم علىٰ جذع واحد، والرواية بذلك عن النبي ﷺ ثابتة. فهٰذا التفسير إذن قاطع للتفاسير الأخرىٰ التي تجعل الظل ليس ظل الشجرة وإنما هو ظلٌّ آخر.

وهاهنا عدة مسائل متعلقة بقوله تعالىٰ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾:

الأولىٰ: أنه ليس في الجنة شمس كما قال سبحانه: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾[الإنسان]. وإذا كان كذلك الظل نتيجة حجز الجسم لضوء الشمس فيكون وراء الجسم الظل، لأنه حجز ضوء الشمس، هٰذا

هو المعقول المعروف في الدنيا من الظل، أما ما في الجنة من الظل فليس من أثر حجز الأجسام للشمس، وإنما هو نعيم خاص، جعله الله جل وعلا لأهل الجنة.

وليس معنىٰ ذلك أن في بقيتها عناء، أو يكون فيه شمس ونحو ذلك ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾؛ بل ما ثَمَّ إلا الأنوار. والله جل وعلا هو المتفضل بذلك كله. والظل من النعيم، وهو ما بين طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشمس، وهو غاية ما يكون من حسن الظل وقرب التنعم، فهٰذا هو ظل الجنة.

إذن: هو نعيمٌ خلقه الله جل وعلا لأهل الجنة، مغاير لظل الدنيا، ووصف الله جل وعلا هٰذا الظل بأنه ممدود، ومعنىٰ الممدود الممتد، يعني في الطول، وهٰذا هو الذي فسره ﷺ في الحديث في الروايات الكثيرة بقوله: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا». أي لا يقطعها في مائة عام أو أكثر من مائة عام، هٰذا يعني أنها دائمة الظل، أو طويلة الظل، أو أن هٰذا الظل ممدود جدًّا، وهٰذا الظل أيضًا لا ينقطع، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[الرعد:٣٥]، دائمًا هم في ظلال كما في قوله تعالىٰ في سورة يس: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

المسألة الثانية: أن العقلانيين من المعتزلة وأشباههم طعنوا في هٰذه الروايات، وفي دلالة هٰذه الآية، علىٰ أن المراد ظل شجرة ونحو ذلك، لأجل أن هٰذا لا يعقل، أو أن المراد بذلك التنعم لا حقيقة الظل، فلا يُثبتون أن في الجنة ظلًا، وإنما يقولون: إن هٰذا تمثيل وأشباه ذلك. وهٰذا مخالف لظاهر الآية، ومخالف لما دلت عليه الآيات الأُخَر من ذكر الظل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾[النساء]، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾[الرعد]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾[يس]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها ذكر الظل، وكذلك الشجرة جعلها الله جل وعلا بهٰذا الوصف في الجنة، وهي شجرة عظيمة الحجم والكبر، وكذلك هي عظيمة المعنىٰ والأثر علىٰ أصحاب الجنة. فالصواب؛ بل الواجب هو إثبات النص في الأمور الغيبية علىٰ ما جاء به، ولا نَدْخُل مُكَيِّفِينَ أو متأولين.

فهل في الجنة ظل؟ نعم، من دلالة الآيات.

وهل في الجنة شجرة بهٰذا الوصف العظيم والمد الكبير؟ نعم، علىٰ ما جاء في السنة، وهٰذه الأمور الغيبية لا نُعْمِل فيها العقل، لأنها أمور غيب، والغيب لا يقاس علىٰ الشهادة، لأن لكل حال وصفًا

ومقالًا.

المسألة الثالثة: كثيرًا ما يأتي في الروايات بل في القرآن أيضًا ذكر عدد السبعين، وذكر عدد السبعين أينما ورد في الأدلة لا يراد به العدد جزمًا، فقد يراد به العدد وقد لا يراد به العدد، وذلك لأن من أساليب العرب ومن الأساليب الشائعة في اللغة أن عدد السبعين يراد به التكثير، أي العدد الكثير، فقد يكون سبعين، وقد يكون مائة، وقد يكون مائتين، وقد يكون أكثر من ذلك.

وهٰذا مثل قول الله جل وعلا: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٨٠] فقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ﴾ أي مائة أو مائتين أو ألفًا، أو أكثر من ذلك، كل هٰذا لا يدخل في المفهوم، بمعنىٰ أن المفهوم من عدد السبعين في اللغة لا يراد به حقيقة العدد، فالرواية التي فيها ذكر عدد السبعين – قبل البحث في مسألة الإسناد – قد جاءت علىٰ الشك، وهي أيضًا لا تخالف الرواية التي فيها ذكر عدد المائة، لأجل أن المراد بالسبعين التكثير.

الدرس السادس

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ: يَعْنِي يَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ الْآيَةَ [مُحَمَّدٍ: ١٥]، بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾ أَيْ: وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْفَوَاكِهِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ فِي الْأَلْوَانِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٥] أَيْ: يُشْبِهُ الشَّكْلُ الشَّكْلَ، وَلَكِنَّ الطَّعْمَ غَيْرُ الطَّعْمِ. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» فِي ذِكْرِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ قَالَ: «فَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ وَنَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ».

وَفِيهِمَا أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خُسِفَتِ الشَّمْسُ، فَصَلَّىٰ رسولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ، فَذَكَرَ الصَّلَاةَ. وَفِيهِ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هٰذا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ. قَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا».

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَىٰ: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمة، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَقِيلٍ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ، إِذْ تَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَقَدَّمْنَا مَعَهُ، ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا لِيَأْخُذَهُ ثُمَّ تَأَخَّرَ، فَلَمَّا قَضَىٰ الصَّلَاةَ قَالَ لَهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، صنعتَ اليومَ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا مَا كُنْتَ تَصْنَعُهُ؟ قَالَ: «إِنَّهُ عُرِضَتْ علَيَّ الْجَنَّةُ، وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَة والنُّضْرَة، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ لِآتِيَكُمْ بِهِ، فحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِهِ لَأَكَلَ مِنْهُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يُنْقِصُونَهُ».

وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، نَحْوَهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ بَحْرٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ زَيْدٍ الْبُكَالِي: أَنَّهُ سَمِعَ عُتْبَةَ بْنَ عَبْدٍ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْحَوْضِ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فِيهَا فَاكِهَةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهَا شَجَرَةٌ تُدْعَىٰ طُوبَىٰ» فَذَكَرَ شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ، قَالَ: أَيُّ شَجَرٍ أَرْضِنَا تُشْبِهُ؟ قَالَ: «لَيْسَتْ تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أتيتَ الشَّامَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «تُشْبِهُ شَجَرَةً بِالشَّامِ تُدْعَىٰ الجَوزة، تَنْبُتُ عَلَىٰ سَاقٍ وَاحِدٍ،

وَيَنْفَرِشُ أَعْلَاهَا». قَالَ: مَا عِظَمُ أَصْلِهَا؟ قَالَ: «لَوِ ارْتَحَلَتْ جَذعَة مِنْ إِبِلِ أَهْلِكَ مَا أَحَاطَتْ بِأَصْلِهَا حَتَّىٰ تَنْكَسِرَ تَرْقُوَتُهَا هَرَمًا». قَالَ: فِيهَا عِنَبٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْعُنْقُودِ؟ قَالَ: «مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الْأَبْقَعِ، وَلَا يَفْتُرُ». قَالَ: فَمَا عظم الحَبَّة؟ قَالَ: «هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ تَيْسًا مِنْ غَنَمِهِ قَطُّ عَظِيمًا؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَسَلَخَ إِهَابَهُ فَأَعْطَاهُ أُمَّكَ، فَقَالَ: اتَّخِذِي لَنَا مِنْهُ دَلْوًا؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فَإِنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ لَتُشْبِعُنِي وَأَهْلَ بَيْتِي؟ قَالَ: «نَعَمْ وعامَّة عَشِيرَتِكَ».

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ أَيْ: لَا تَنْقَطِعُ شِتَاءً وَلَا صَيْفًا، بَلْ أُكُلُهَا دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا، مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللهِ شَيْءٌ.

قَالَ قَتَادَةُ: لَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَنَاوُلِهَا عودٌ وَلَا شوكٌ وَلَا بُعدٌ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: «إِذَا تَنَاوَلَ الرَّجُلُ الثَّمَرَةَ عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَىٰ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ أَيْ: عَالِيَةٍ وَطِيئَةٍ نَاعِمَةٍ.

قَالَ النَّسَائِيُّ وَأَبُو عِيسَىٰ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا رِشْدِين بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ دَرَّاج، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ قَالَ: «ارْتِفَاعُهَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَسِيرَةُ مَا بَيْنَهُمَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ».

ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هٰذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ، إِلَّا مِنْ حَدِيثِ رِشْدِينَ بْنِ سَعْدٍ. قَالَ: وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: مَعْنَىٰ هٰذا الْحَدِيثِ: ارْتِفَاعُ الْفُرُشِ فِي الدَّرَجَاتِ، وَبُعْدُ مَا بَيْنَ الدرجتين كما بين السماء والأرض. هَكَذَا قَالَ: إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ هٰذا إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ رِشْدِينَ بْنِ سَعْدٍ، وَهُوَ الْمِصْرِيُّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ رِشْدِينَ. ثُمَّ رَوَاهُ هُوَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، كِلَاهُمَا عَنْ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، عَنِ ابْنِ وَهْبٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ، فَذَكَرَهُ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا عَنْ نُعَيم بْنِ حَمَّادٍ، عَنِ ابْنِ وَهْبٍ. وَأَخْرَجَهُ الضِّيَاءُ فِي صفة الجنة من حديث حرملة عن ابن وَهْبٍ، بِهِ مِثْلَهُ.(١) وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَسَنِ بْنِ مُوسَىٰ، عَنِ ابْنِ لَهِيعَة، حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، فَذَكَرَهُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ جُوَيْبر، عَنْ أَبِي سَهْلٍ -يَعْنِي:

---

(١) هٰذا إسناد مصري مشهور، دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، حتىٰ ما قبل رشدين بن سعد، هٰذا كله إسناد مصري، النسخة معروفة تروىٰ بها أحاديث كثيرة وهي ضعيفة، نسخة دراج هٰذه ضعيفة، سواء رواها رشدين، أو رواها عنه غيره.

كَثِيرَ بْنَ زِيَادٍ-عَنِ الْحَسَنِ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ قَالَ: ارْتِفَاعُ فِرَاشِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ ثَمَانِينَ سَنَةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ جَرَىٰ الضَّمِيرُ عَلَىٰ غَيْرِ مَذْكُورٍ. لَكِنْ لَمَّا دَلَّ السِّيَاقُ، وَهُوَ ذِكْرُ الْفُرُشِ عَلَى النِّسَاءِ اللَّاتِي يضاجعن فِيهَا، اكْتَفَىٰ بِذَلِكَ عَنْ ذِكْرِهِنَّ، وَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِنَّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [ص] يَعْنِي: الشَّمْسَ، عَلَىٰ الْمَشْهُورِ مِنْ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ.

قَالَ الْأَخْفَشُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ أَضْمَرَهُنَّ وَلَمْ يَذْكُرْهُنَّ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ذُكِرْنَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ أَيْ: أَعَدْنَاهُنَّ فِي النَّشْأَةِ الْآخِرَةِ بَعْدَمَا كُنَّ عَجَائِزَ رُمْصًا، صِرْنَ أَبْكَارًا عُرُبًا، أَيْ: بَعْدَ الثُّيُوبَةِ عُدْنَ أَبْكَارًا عُرُبًا، أَيْ: مُتَحَبِّبَاتٍ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ بِالْحَلَاوَةِ وَالظَّرَافَةِ وَالْمَلَاحَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عُرُبًا﴾ أَيْ: غَنِجات.

قَالَ مُوسَىٰ بْنُ عُبَيدة الرَّبَذِي، عَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ قَالَ: «نِسَاءٌ عَجَائِزُ كُنّ فِي الدُّنْيَا عُمْشًا رُمْصًا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: غريب، وموسىٰ ويزيد ضعيفا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ الْحِمْصِيُّ، حَدَّثَنَا آدَمُ -يَعْنِي: ابْنَ أَبِي إِيَاسٍ-حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ مُرَّة، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ يَعْنِي: «الثيب والأبكار اللاتي كُنَّ في الدنيا».

وَقَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيد: حَدَّثَنَا مُصْعَبُ بْنُ الْمِقْدَامِ، حَدَّثَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: أَتَتْ عَجُوزٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ. فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ، إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ». قَالَ: فَوَلَّت تَبْكِي، قَالَ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾.

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الشَّمَائِلِ عَنْ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ.

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ سَهْلٍ الدِّمْيَاطِيُّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ هَاشِمٍ الْبَيْرُوتِيُّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَبِي كَرِيمَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أُمِّهِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ

اللهِ، أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾، قَالَ: «حُورٌ: بِيضٌ، عِينٌ: ضِخَامُ الْعُيُونِ، شُفْر الْحَوْرَاءِ بِمَنْزِلَةِ جَنَاحِ النَّسْرِ». قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾، قَالَ: «صَفَاؤُهُنَّ صفاءُ الدُّرِّ الَّذِي فِي الْأَصْدَافِ، الَّذِي لَمْ تَمَسّه الْأَيْدِي». قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾[الرَّحْمَنِ]. قَالَ: «خَيِّرَاتُ الْأَخْلَاقِ، حِسان الْوُجُوهِ». قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾[الصَّافَّاتِ]، قَالَ: «رِقَّتُهُنَّ كَرِقَّةِ الْجِلْدِ الَّذِي رَأَيْتَ فِي دَاخِلِ الْبَيْضَةِ مِمَّا يَلِي الْقِشْرَ، وَهُوَ: الغِرْقِئُ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾. قَالَ: «هُنَّ اللَّوَاتِي قُبِضْنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَجَائِزَ رُمْصًا شُمطًا، خَلَقَهُنَّ اللهُ بَعْدَ الْكِبَرِ، فَجَعَلَهُنَّ عَذَارَىٰ عُرُبًا مُتَعَشِّقَاتٍ مُحَبَّبَاتٍ، أَتْرَابًا عَلَىٰ مِيلَادٍ وَاحِدٍ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ نِسَاءُ الدُّنْيَا أَفْضَلُ أَمِ الْحُورُ الْعِينِ؟ قَالَ: «بَلْ نِسَاءُ الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، كَفَضْلِ الظِّهَارَةِ(١) عَلَىٰ الْبِطَانَةِ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَبِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: «بِصَلَاتِهِنَّ وَصِيَامِهِنَّ وَعِبَادَتِهِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَلْبَسَ اللهُ وُجُوهَهُنَّ النُّورَ، وَأَجْسَادَهُنَّ الْحَرِيرَ، بِيضُ الْأَلْوَانِ، خُضْرُ الثِّيَابِ، صُفْرُ الْحُلِيِّ، مَجَامِرُهُنَّ الدُّرّ، وَأَمْشَاطُهُنَّ الذَّهَبُ، يَقُلْنَ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ أَبَدًا، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ أَبَدًا، وَنَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا نَظْعَنُ أَبَدًا، أَلَا وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا، طُوبَىٰ لِمَنْ كُنَّا لَهُ وَكَانَ لَنَا». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، الْمَرْأَةُ مِنَّا تَتَزَوَّجُ زَوْجَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ وَالْأَرْبَعَةَ، ثُمَّ تَمُوتُ فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَيَدْخُلُونَ مَعَهَا، مَنْ يَكُونُ زَوْجَهَا؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهَا تُخَيَّرُ فَتَخْتَارُ أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ هٰذا كَانَ أَحْسَنَ خُلُقًا مَعِي فَزَوِّجْنِيهِ، يَا أُمَّ سَلَمَةَ ذَهَبَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ الطَّوِيلِ الْمَشْهُورِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَشْفَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللهُ: قَدْ شَفَّعْتُكَ وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِهَا. فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، مَا أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَاكِنِكُمْ من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم، فَيَدْخُلُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً، سَبْعِينَ مِمَّا يُنْشِئُ اللهُ، وَثِنْتَيْنِ مَنْ وَلَدِ آدَمَ لَهُمَا فَضْلٌ عَلَىٰ مَنْ أَنْشَأَ اللهُ، بِعِبَادَتِهِمَا اللهَ فِي الدُّنْيَا، يَدْخُلُ عَلَىٰ الْأُولَىٰ مِنْهُمَا فِي غُرْفَةٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ، عَلَىٰ سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِاللُّؤْلُؤِ، عَلَيْهِ سَبْعُونَ زَوْجًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَإِنَّهُ لَيَضَعُ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَىٰ يَدِهِ مِنْ صَدْرِهَا مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهَا وَجِلْدِهَا وَلَحْمِهَا، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَىٰ مُخِّ سَاقِهَا كَمَا يَنْظُرُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ السِّلْكِ فِي قَصَبَةِ الْيَاقُوتِ، كَبِدُهُ لَهَا

---

(١) ما ظهر من الثوب، عادة يجعل للثوب طبقتين، يهتم بالظهارة يعني الجهة الظاهرة.

مِرْآةٌ -يَعْنِي: وَكَبِدُهَا لَهُ مِرْآةٌ- فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهَا لَا يَمَلُّهَا وَلَا تَمَلُّهُ، وَلَا يَأْتِيهَا مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَجَدَهَا عَذْرَاءَ، مَا يَفْتُرُ ذَكَرُه، وَلَا تَشْتَكِي قُبُلها إِلَّا أَنَّهُ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّة، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نُودِيَ: إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّكَ لَا تَمَلُّ وَلَا تُمَلُّ، إِلَّا أَنَّ لَكَ أَزْوَاجًا غَيْرَهَا، فَيَخْرُجُ، فَيَأْتِيهِنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا جَاءَ وَاحِدَةً قَالَتْ: وَاللهِ مَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ أَحْسَنُ مِنْكَ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ».

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ دَرَّاج، عَنِ ابْنِ حُجَيرة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: أَنَطأ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ دَحْمًا دَحْمًا، فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعتْ مُطهَّرة بِكْرًا».

وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَابِرٍ الْفَقِيهُ الْبَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الدَّقِيقُ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا مُعَلَّىٰ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ، عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدن أَبْكَارًا». وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا عِمْران، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُعْطَىٰ الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةَ كَذَا وَكَذَا فِي النِّسَاءِ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَيُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «يُعْطَىٰ قُوَّةَ مِائَةٍ».

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ وَقَالَ: صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

وَرَوَىٰ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْجُعْفِيُّ، عَنْ زَائِدَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَصِلُ إِلَىٰ نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَىٰ مِائَةِ عَذْرَاءَ».

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْمَقْدِسِيُّ: هٰذا الْحَدِيثُ عِنْدِي عَلَىٰ شَرْطِ الصَّحِيحِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ عُرُبًا ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي مُتَحَبِّبَاتٍ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ، أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ النَّاقَةِ الضُّبَعَةِ، هِيَ كَذَلِكَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْعُرُب: الْعَوَاشِقُ لِأَزْوَاجِهِنَّ، وَأَزْوَاجُهُنَّ لَهُنَّ عَاشِقُونَ. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَرْجِس، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَيَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كثير، وعطية، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ ثَوْرُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عِكْرِمَة قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿ عُرُبًا ﴾ قَالَ: هِيَ الملِقَةُ لِزَوْجِهَا.

وَقَالَ شُعْبَةُ، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَةَ: هِيَ الغَنِجة.

وَقَالَ الْأَجْلَحُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ عِكْرِمَةَ: هِيَ الشَّكِلَة.

وَقَالَ صَالِحُ بْنُ حَيَّان، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَة فِي قَوْلِهِ: ﴿عُرُبًا﴾ قَالَ: الشَّكِلَةُ بِلُغَةِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَالْغَنِجَةُ بِلُغَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

وَقَالَ تَمِيمُ بْنُ حَذْلَمٍ: هِيَ حُسْنُ التَّبَعُّل.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: العُرُب: حَسِنَاتُ الْكَلَامِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: ذُكِرَ عَنْ سَهْلِ بْنِ عُثْمَانَ الْعَسْكَرِيِّ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿عُرُبًا﴾ قَالَ: «كَلَامُهُنَّ عَرَبِيٌّ».

وَقَوْلُهُ: ﴿أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي: فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ، ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَتْرَابُ: الْمُسْتَوِيَاتُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: الْأَمْثَالُ. وَقَالَ عَطِيَّةُ: الْأَقْرَانُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ أَيْ: فِي الْأَخْلَاقِ الْمُتَوَاخِيَاتُ بَيْنَهُنَّ، لَيْسَ بَيْنَهُنَّ تَبَاغُضٌ وَلَا تَحَاسُدٌ، يَعْنِي: لَا كَمَا كُنَّ ضَرَائِرَ فِي الدُّنْيَا ضَرَائِرَ مُتَعَادِيَاتٍ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْكَهْفِ، عَنِ الْحَسَنِ وَمُحَمَّدٍ: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ قَالَا الْمُسْتَوِيَاتُ الْأَسْنَانِ، يَأْتَلِفْنَ جَمِيعًا، وَيَلْعَبْنَ جَمِيعًا.

وَقَدْ رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مَنِيعٍ، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَمُجْتَمَعًا لِلْحُورِ الْعِينِ، يَرْفَعْنَ أَصْوَاتًا لَمْ تَسْمَعِ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهَا، يَقُلْنَ نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيد، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ، وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ، طُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ». ثُمَّ قَالَ: هٰذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمة، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ فُلَانِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَافِعٍ، عَنْ بَعْضِ وَلَدِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْحُورَ الْعِينَ لَيُغَنِّينَ فِي الْجَنَّةِ، يَقُلْنَ: نَحْنُ خَيِّرات حِسان، خُبِّئنا لأزْواجٍ كِرَام».

قُلْتُ: إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ هٰذا هُوَ أَبُو الْمُنْذِرِ الْوَاسِطِيُّ أَحَدُ الثِّقَاتِ الْأَثْبَاتِ. وَقَدْ رَوَى هٰذا الْحَدِيثَ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمُلَقَّبُ بِدُحَيْم، عَنِ ابْنِ أَبِي فُدَيْك، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ عَوْنِ بْنِ الْخَطَّابِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَافِعٍ، عَنِ ابنِ لأَنَسٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْحُورَ الْعِينَ يُغَنِّينَ

فِي الْجَنَّةِ: نَحْنُ الْجِوَارُ الْحِسَانُ، خُلِقْنَا لِأَزْوَاجٍ كِرَامٍ».

وَقَوْلُهُ: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ أَيْ: خُلِقْنَا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَوِ: ادُّخِرْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَوْ: زُوِّجْنَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ فَتَقْدِيرُهُ: أَنْشَأْنَاهُنَّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَهٰذا تَوْجِيهُ ابْنِ جَرِيرٍ.

رُوِيَ عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: صليتُ لَيْلَةً، ثُمَّ جَلَسْتُ أَدْعُو، وَكَانَ الْبردُ شَدِيدًا، فَجَعَلْتُ أَدْعُو بِيَدٍ وَاحِدَةٍ، فَأَخَذَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، فَرَأَيْتُ حَوْرَاءَ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا وَهِيَ تَقُولُ: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ، أَتَدْعُو بِيَدٍ وَاحِدَةٍ وَأَنَا أُغَذَّى لَكَ فِي النَّعِيمِ مِنْ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ!

قُلْتُ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ مُتَعَلِّقًا بِمَا قَبْلَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ أَيْ: فِي أَسْنَانِهِمْ. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ جَرِيرٍ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَىٰ ضَوْءِ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَمَجَامِرُهُمُ الأُلُوّة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم علىٰ خَلْق رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَىٰ صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ».

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ وَعَفَّانُ قَالَا حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ -وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ-عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَان، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَدْخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ جُردا مُردًا بِيضًا جِعادًا مُكَحَّلين، أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ - أَوْ: ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ-، وَهُمْ عَلَىٰ خَلْق آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ».

وَرَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ الْقَطَّانِ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَب، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْم، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَل، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ جُردًا مُردًا مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ -أَوْ: ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً-». ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ غريب.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ أَنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْحِ حَدَّثَه عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، يُرَدون بَنِي ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ فِي الْجَنَّةِ، لَا يَزِيدُونَ عَلَيْهَا أَبَدًا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ».

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ سُوَيْد بْنِ نَصْرٍ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ رِشْدِينِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ، بِهِ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ونت اهتدىٰ بهداه.

أما بعد، فيقول الله جل وعلا: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الواقعة] هٰذا النعيم الذي وصفه الله جل وعلا وذكره لأصحاب اليمين هو بعض نعيمهم، والنعيم المذكور في القرآن تارة يكون مشتركًا، وتارة يكون مختصًّا؛ لكن الله جل وعلا ميز السابقين بما ذكر مع أن فيه من النعيم ما يصلح لأصحاب اليمين وميز أصحاب اليمين بنعيم مع أن فيه ما يشترك معهم فيه السابقون. فالنعيم المذكور في القرآن والسنة مما يكون في الجنة، قد يكون مشتركا بين أهل الجنة، وقد يكون مختصا، والآيات هٰذه في معناها قريب وواضح كما ذكر ابن كثير في قوله جل وعلا: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ذكر وصف الفاكهة وأنها عظيمة من جهة شجرها، وعظيمة من جهة ثمرها، وأنه ربما تكون الحبة الواحدة من العنب تغذي العشيرة، وربما كانت الحبة الواحدة كالقِلَال العظيمة، ونحو ذلك من الوصف، وهٰذا من باب التقريب لا من باب التحقيق، يعني أن وصف الجنة وما فيها لا يماثل الدنيا فإذا شُبِّه بشيء في الدنيا فإنما هو لتقريب الفهم وإلا فما في الجنة من دنياكم إلا الأسماء، فهو شجرٌ لا كالشجر، وثمر لا كالثمر، والنعيم في ذلك عظيم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ من الأساليب المعروفة في اللغة أنه يكنىٰ عن الشيء إذا كان للكناية عنه فائدة، وهنا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ فلم يذكر ما في الفرش، والفرش إذا كانت مرفوعة من حيث هي، ولا أحد فيها مع الرجل يتلذذ به، فهو بعد عن الناس، وفي هٰذا قصورٌ في النعيم، وإنما أراد هنا الكناية بأن هٰذه الفرش رفعت لتمام النعيم بمن فيها؛ لتمام التنعم بالزوجات أو بالحور العين اللاتي علىٰ هٰذه الفرش، والكناية أسلوب معروف من أساليب العرب، فإنه يذكر الشيء ويكون المراد واضحًا، وإنما يحذف لمعرفته ولتعظيم شأن المحذوف. ولهٰذا قال بعدها ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّآ ﴾ تأكيد، والتأكيد في هٰذا المقام يقتضي تعظيم الجملة؛ لأن أصل التأكيد – في النحو والبلاغة – يكون لأغراض:

منها تعظيم الكلام كقوله تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا

﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥﴾[الصافات]. ونحو ذلك.

ومنها أن يكون فيه تنزيل للمخاطب منزلة الشَّاكِّ والْمُنْكِرِ فيؤكَّد له الكلام.

ومنها أن يكون المخاطب منكرًا فيؤكد الكلام تغليظًا عليه.

فقوله تعالىٰ هنا: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾ أكد الإنشاء وعظَّمه، ولهٰذا جاء بالمصدر بعدها فقال: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾، وهٰذا يقتضي أن إنشاء الزوجات في الجنة أعظم إنشاء من جهة صورهن ووصفهن وما يحصل من التلذذ بهن، وهٰذا من أعظم نعيم الجنة، وسمعت ما في وصف هٰذه الزوجات من كونهن أبكارًا، عُرُبًا أترابًا، وأنهن متقاربات السن، وأنهن حسنات التبعل لأزواجهن، حسنات الكلام، حسنات التدلل، ونحو ذلك.

وهنا مسألة مهمة، وهي: هل هؤلاء من نساء الجنة أي من الحور العين، أم من نساء الدنيا؟ والله جل وعلا جعل في الجنة حورًا عينًا نعيما لأهلها، وجعل فيها أيضًا الزوجات من الدنيا يُتلذذ بهن، فالرجل له أكثر من زوجة من نساء أهل الدنيا، فمن ماتت وهي معه فهي زوجة له في الآخرة كما هي زوجة له في الدنيا، وأيضًا يُزَوَّجُ غيرَها من نساء الدنيا ممن لم تتزوج، وهؤلاء النسوة من نساء الدنيا إذا دخلن الجنة، فإن الله جل وعلا يعيد إنشاءهن من جهة الصورة، ومن جهة الصفة والعمر، والشكل، والجسم، إلىٰ آخره.

وأما الحور العين فإنهن نساء الجنة اللاتي خلقن في الجنة، ولَسْنَ من أهل التكليف، فهل مقتضىٰ هٰذه الآيات التفريق ما بين هؤلاء وهؤلاء؟ أي إن السابقين لهم حور عين، أما أصحاب اليمين فلهم من أُنشِئن إنشاء فجُعِلْنَ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا، فهل مقتضىٰ اللام في قوله تعالىٰ: ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ﴾ للاختصاص أم لا؟ هٰذه مسألة تحتاج إلىٰ بحث، والتفريق بين الحور العِين في الآيات ونساء الجنة غير واضح لي، حتىٰ في غير هٰذه الآية، هل الوصف لنساء الجنة، أم هو وصف للحور العين؟ فينبغي تحقيق هٰذه المسألة، لأنها من المسائل المهمة، وينبغي جَمْعُ الآيات وجمع ما ورد في السنة وجمع كلام السلف فيها.

وظاهر الكلام فيما قرأتُ أن ابن كثير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ ﴾ يُورِدُ تارةً أنهن حورٌ عينٌ، وتارة أنهن من نساء الأرض من الْمُكَلَّفَاتِ، ما المراد؟ تحتاج المسألة إلىٰ

بحث وإلىٰ تأمل.

قال جل وعلا: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾ اللام في قوله: ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾، إما بمعنىٰ من أجل، وإما بمعنىٰ الاختصاص، فيكون الكلام إنا أنشأناهن من أجل أصحاب اليمين، أو إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربًا أترابا وهؤلاء مختصات بأصحاب اليمين، وباقي الكلام واضح.

والإسناد الذي ذكرنا لكم؛ الإسناد المصري دراج والسمح بن أبي الهيثم بن أبي سعيد، هٰذه النسخة ضعيفة لأن دراج فيه ضعف، وأحاديثه ليست مستقيمة، والعلماء منهم من يرجح في رواياته إذا روىٰ عنه الثقات من المضريين الكبار مثل عمرو بن الحارث الإمام وأحد علماء مصر الكبار وكان ينتقي، وكان طائفة من العلماء يصححون أو يحسنون الرواية؛ رواية دراج إذا كانت من طريق عمرو لأنه قيل عنه أنه كان ينتقي من أحاديث دراج، والمشهور أن هٰذه النسخة ضعيفة سواء روىٰ عنه عمرة بن الحارث أم رشدين أم غيره.

القطف من العنب يعني ما تمكن من أخذه، وهٰذا يقتضي أنه رآه حقيقة، ليس تمثيلًا أو تصويرًا. وهٰذا من أدلة أهل السُّنة علىٰ أن الجنة مخلوقة الآن بنعيمها، كذلك النار مخلوقة الآن بعذابها، فالنبي ﷺ كاد أن يأخذ من هٰذا القطف من العنب، وقال: « لَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا » أي من عظمه وبركته، لكن حِيل بينه وبينه، يعني ما تقدم لأخذه عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالىٰ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾ تحتمل أن تكون بمعنىٰ: خلقناهن أو صيرناهن، فهي أعم من كونها كانت ثيبًا، وتفيد أيضًا الديمومة، لأن امرأة الدنيا تخلق بكرًا، فمقتضىٰ كون التي في الجنة بكرًا يعني ديمومة ذاك. فقوله تعالىٰ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾ يعني صيرناهن أبكارا، يعني دائمًا، كلما أتاها الرجل عادت بكرا، هٰذا ظاهر الكلام من جهة اللغة، فلجَعَلَ معان عدة، فتارة تكون «جَعَلَ» بمعنىٰ خَلَقَ كقوله جل وعلا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام] جعل الظلمات والنور أي خلق. هٰذا إذا تعدَّت إلىٰ مفعول واحد، وإذا تعدت (جعل) إلىٰ مفعولين، فإنها تكون بمعنىٰ صَيَّرَ أظهر، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[الزخرف:٣] يعني صَيَّرناه قرآنًا عربيًّا، وتأتي (جَعَلَ) بمعنىٰ نَسَبَ ووَصَفَ، أي أضاف نَسَبًا، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا

يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[النحل:٦٢]، وكقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[النحل] إلىٰ آخره.

الدرس السابع

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ هَاشِمٍ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا رَوَّاد بْنُ الْجَرَّاحِ الْعَسْقَلَانِيُّ، حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، عَنْ هَارُونَ بْنِ رِئَابٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَدْخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ عَلَىٰ طُولِ آدَمَ سِتِّينَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْمَلِكِ! عَلَىٰ حُسْنِ يُوسُفَ، وَعَلَىٰ مِيلَادِ عِيسَىٰ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَعَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ، جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحَّلُونَ».

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ خَالِدٍ وَعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَا حَدَّثَنَا عُمَرُ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ هَارُونَ بْنِ رِئَابٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُبعث أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَىٰ صُورَةِ آدَمَ فِي مِيلَادِ ثلاثٍ وَثَلَاثِينَ، جُردًا مُردًا مُكَحَّلِينَ، ثُمَّ يُذْهَبُ بِهِمْ إِلَىٰ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ فَيُكْسَوْنَ مِنْهَا، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُمْ».

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أَيْ: جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْآخَرِينَ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْمُنْذِرُ بْنُ شَاذَانَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكَّارٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَين، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -قَالَ: وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَأْخُذُ عَنْ بَعْضٍ- قَالَ: أَكْرَيْنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ غَدَوْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «عُرضت عليَّ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهَا بِأُمَمِهَا، فَيَمُرُّ عَلَيَّ النَّبِيُّ، وَالنَّبِيُّ فِي الْعِصَابَةِ، وَالنَّبِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ -وَتَلَا قَتَادَةُ هٰذه الْآيَةَ: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هُود]- قَالَ: حَتَّىٰ مرَّ عليَّ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ فِي كَبْكَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». قَالَ: «قلتُ: رَبِّي مَنْ هٰذا؟ قَالَ: هٰذا أَخُوكَ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». قَالَ: «قُلْتُ: رَبِّ فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ قَالَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ فِي الظِّرَابِ. قَالَ: «فَإِذَا وُجُوهُ الرِّجَالِ». قَالَ: «قَالَ: أَرَضِيتَ؟» قَالَ: قُلْتُ: «قَدْ رَضِيتُ، رَبِّ». قَالَ: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ عَنْ يَسَارِكَ فَإِذَا وُجُوهُ الرِّجَالِ. قَالَ: أَرَضِيتَ؟ قُلْتُ: «رَضِيتُ، رَبِّ». قَالَ: فَإِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». قَالَ: وَأَنْشَأَ عُكَّاشة بْنُ مِحْصَن مِنْ بَنِي أَسَدٍ -قَالَ سَعِيدٌ: وَكَانَ بَدْرِيًّا- قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». قَالَ: أَنْشَأَ رَجُلٌ آخَرُ، قال: يا نبي الله، ادع الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ -فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي- أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّبْعِينَ فَافْعَلُوا وَإِلَّا فَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الظِّرَابِ، وَإِلَّا فَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الْأُفُقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ نَاسًا كَثِيرًا قَدْ

تأشَّبُوا[1] حَوْلَهُ». ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ: فَكَبَّرْنَا، قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ: فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هٰذه الْآيَةَ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قَالَ: فَقُلْنَا بَيْنَنَا: مَنْ هَؤُلَاءِ السَّبْعُونَ أَلْفًا؟ فَقُلْنَا: هُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُشْرِكُوا. قَالَ: فَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «بَلْ هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقَيْنِ آخَرَيْنِ عَنْ قَتَادَةَ، بِهِ نَحْوَهُ. وَهٰذا الْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ مِنْ غَيْرِ هٰذا الْوَجْهِ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا مِهْرَان، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبَانِ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هُمَا جَمِيعًا مِنْ أُمَّتِي».

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه، اللّٰهمَّ ألهمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، واغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم.

قال الله جل وعلا في ذكر أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ يعني أن أصحاب اليمين جماعة كثيرة من الأولين من هٰذه الأمة، يعني من الأولين زمانا القريبون عهدًا برسول الله ﷺ، والآخرون زمانا، وهم البعيدون عهدًا من النبي عليه الصلاة والسلام، والثُّلَّة وهي الجماعة الكثيرة، ويقابلها الْقِلَّة، ولهٰذا قال في ذكر السابقين في الآية التي قبلها ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾، وقد مر معك أن الصحيح أن هٰذا الوصف يشمل هٰذه الأمة يشمل غيرها يعني في أصحاب اليمين، حينما ذكرنا الأوقال في انقسام الناس إلىٰ ثلاث طبقات ووجودهم في هٰذه الأمة ووجودهم في الأمم السالفو، وملخصه:

أن العلماء اختلفوا في انقسام الناس إلىٰ هٰذه الطوائف الثلاث السابقين وأصحاب اليمين واصحاب الشمال، فالسابقون والمقربون قال طائفة من أهل العلم إنهم في هٰذه الأمة فقط، وأما ألأمم السالفة فإنهم

---

(١) يعني تجمعوا حوله.

مقتصدون وظالمون لأنفسهم، كما قال في آية المائدة ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

والقول الآخر أن هٰذه الأوصاف يعني السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال هؤلاء يكونون في هٰذه الأمة فقط، وأما غير هٰذه الأمة علىٰ القسمين السالفين، ويكون المعنىٰ إذن في قوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يعني هٰذه الأمة أمة محمد عليه الصلاة والسلام بالخطاب، ويدخل معها غيرها من الأمم بالمعنىٰ، وذلك أنه تعالىٰ قال في صدر هٰذه السورة: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾. والأصل في قوله: ﴿ وَكُنتُمْ ﴾ هٰذه الأمة، ويحتمل أن يكون المراد الإنسان من حيث هو؛ لكن ظاهر السياق أن المقصود هٰذه الأمة.

وإذا تبين ذلك فقوله جل وعلا: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ هو في هٰذه الأمة في الخطاب، وهو في غيرها أيضًا من الأمم ممن آمن بموسىٰ عليه السلام أولًا، ثم من آمن به آخِرًا، وكذلك من آمن بعيسىٰ عليه السلام أولًا، ثم من آمن به آخرًا، حتىٰ بُعِثَ محمد عليه الصلاة والسلام، فبطلت كل شريعة إلا ما جاء به عليه الصلاة والسلام.

المقصود من هٰذا أن قوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ في أصحاب اليمين، واصحاب اليمين الخطاب هنا أنهم تقسيم لهٰذه الأمة وكذلك غيرهم معهم في ذلك.

الأحاديث التي سمعتم فيها الحديث الأول الذي فيه وصف أهل الجنة أنهم يدخلون علىٰ طول آدم وعلىٰ عمر عيسىٰ ونحو ذلك، وهٰذا له ما يؤيده لكن قوله في الرواية: « سِتِّينَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْمَلِكِ» في رواية ابن أبي الدنيا المقصود منها من استوىٰ في خلقه وكان قويا مكتمل الأعضاء، وليس المراد ذراع الرب جل وعلا، ونحو ذلك، لأن الملك من ملوك الدنيا في مظنة الاكتمال والقوة وسلامة الآلات إلىٰ آخره، يعني ذراع الرجل الشديد القوي مثل ما جاء في رواية « بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ »

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ حَالَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الشِّمَالِ، فَقَالَ: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ هُمْ فِيهِ أَصْحَابُ الشِّمَالِ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿ فِى سَمُومٍ ﴾ وَهُوَ: الْهَوَاءُ الْحَارُّ ﴿وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ وَهُوَ: الْمَاءُ الْحَارُّ.

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ظِلُّ الدُّخَانِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وعِكْرِمَة، وَأَبُو صَالِحٍ، وقَتَادَةُ، والسُّدِّيّ، وَغَيْرُهُمْ. وَهٰذه كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [المرسلات]، وَلِهٰذا قَالَ هَاهُنَا: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ وَهُوَ الدُّخَّانُ الْأَسْوَدُ ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ أَيْ: لَيْسَ طَيِّبَ الْهُبُوبِ وَلَا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وقَتَادَةُ: ﴿وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ أَيْ: وَلَا كَرِيمِ الْمَنْظَرِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كُلُّ شَرَابٍ لَيْسَ بِعَذْبٍ فَلَيْسَ بِكَرِيمٍ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْعَرَبُ تَتْبَعُ هٰذه اللَّفْظَةَ فِي النَّفْيِ، فَيَقُولُونَ: «هٰذا الطَّعَامُ لَيْسَ بِطَيِّبٍ وَلَا كَرِيمٍ، هٰذا اللَّحْمُ لَيْسَ بِسَمِينٍ وَلَا كَرِيمٍ، وَهٰذه الدَّارُ لَيْسَتْ بِنَظِيفَةٍ وَلَا كَرِيمَةٍ».

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أَيْ: كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُنَعَّمِينَ مُقْبِلِينَ عَلَىٰ لَذَّاتِ أَنْفُسِهِمْ، لَا يَلْوُونَ عَلَىٰ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ.

﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ ﴾ أَيْ: يُصَمِّمون وَلَا يَنْوُونَ تَوْبَةً ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللهِ، وَجَعْلُ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الشِّرْكُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، والسُّدِّيّ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: هُوَ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ.

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؟ يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ مُكَذِّبِينَ بِهِ مُسْتَبْعِدِينَ لِوُقُوعِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ أَيْ: أَخْبِرْهُمْ يَا

مُحَمَّدُ أَنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ سَيُجْمَعُونَ إِلَىٰ عَرَصات الْقِيَامَةِ، لَا نُغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا، كَمَا قَالَ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هُودٍ]. وَلِهَٰذا قَالَ هَاهُنَا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ أَيْ: هُوَ مُوَقَّتٌ بِوَقْتٍ مُحَدَّد، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُص.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾: وَذَلِكَ أَنَّهُم يُقْبَضُونَ ويُسْجَرون حَتَّىٰ يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ، حتىٰ يملؤوا مِنْهَا بُطُونَهُمْ، ﴿فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ الْعِطَاشُ، وَاحِدُهَا أَهْيَمُ، وَالْأُنْثَىٰ هَيْمَاءُ، وَيُقَالُ: هَائِمٌ وَهَائِمَةٌ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْر، وَعِكْرِمَةُ: الهيم: الْإِبِلُ الْعِطَاشُ الظِّمَاءُ.

وَعَنْ عِكْرِمَة أَنَّهُ قَالَ: الْهِيمُ: الْإِبِلُ الْمِرَاضُ، تَمص الْمَاءَ مَصًّا وَلَا تَرْوَىٰ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْهِيمُ: دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَلَا تَرْوَىٰ أَبَدًا حَتَّىٰ تَمُوت، فَكَذَلِكَ أَهْلُ جَهَنَّمَ لَا يَرْوُونَ مِنَ الْحَمِيمِ أَبَدًا.

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ: أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَشْرَبَ شُرْبَ الْهِيمِ عَبَّة وَاحِدَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَنَفَّسَ ثَلَاثًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ أَيْ: هَٰذا الَّذِي وَصَفْنَا هُوَ ضِيَافَتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ حِسَابِهِمْ، كَمَا قَالَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الْكَهْفِ] أَيْ: ضِيَافَةً وَكَرَامَةً.

قال الله جل وعلا: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ هٰذا القسم هو آخر قسم من أقسام الناس يوم القيامة، قَالَ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ فذكر السابقين ثم ذكر أصحاب اليمين، ثم ذكر الكافرين الضالين، وهم المخلدون في النار فقال: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾.

وأصحاب جمع صاحب، والصاحب في اللغة يطلق علىٰ الْمُلَازِم للذَّاتِ أو الْمُلَازِم للوصف، فمن لازم ذاتًا قيل له: صاحبٌ لتلك الذات، فصاحب المنزل لملازمته المنزلَ، صاحب الدار لملازمته الدارَ، صاحب فلان يَصْحَب فلانًا، أو صاحب لفلان لكثرة ملازمته له، ومن ذلك صحابة رسول الله ﷺ لملازمتهم له عليه الصلاة والسلام.

أو تكون الملازمة لوصف مثل: صاحب العلم، صاحب الرحمة، صاحب القوة، ونحو ذلك. وهنا جعلهم الله جل وعلا أصحابَ الشمال، والمقصود بالشمال والْمَشْأَمَة هنا أنهم يأخذون كتابهم بشمالهم، والناس يوم القيامة علىٰ قسمين:

- قسم يأخذ كتابه باليمين.
- وقسم يأخذ كتابه بشماله وراء ظهره وهم الكفار.

ومن أهل العلم من جعلهم ثلاثة أقسام: من يأخذ باليمين، ومن يأخذ بشماله، ومن يأخذه وراء ظهره. وهٰذا ليس بجيد؛ لأن آية سورة الانشقاق: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ محمولة علىٰ الآيات الأُخَر، فهو يأخذ صحيفته بشماله وراء ظهره.

قال جل وعلا: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ أي الذين أخذوا كتابهم بالشمال، فصاروا مستحقين النار، وبئس البشرىٰ أن يأخذوا في عَرَصَات القيامة كتابَهم بالشمال يبشرهم ذلك بعذاب وحميم.

قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ثم قال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾، وذكرنا لك في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾ أن في هٰذا الأسلوب مقاصدَ بلاغية متنوعة من أهمها: تعظيم الحال، وتَشْنِيع الوصف في هٰذا المقام؛ وكأن المقام فيه أشياء كثيرة ذُكِرَ بعضُها وبعضُها لم يذكر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ وأشباه ذلك.

فالسؤال هنا: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾ والمقصود منه أنَّ أَمْرَهم في تفاصيل ما هم فيه من العذاب أكثرُ وأعظمُ من أن يوصف هنا، ثم ذكر بعضَ ما هم فيه من النَّكَالِ والعذاب - أعاذنا الله وإياكم من سبيلهم-؛ فقال: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢﴾ والسَّمُوم هي الريح الحارة التي فيها إِيذَاءٌ للبدن لظاهره ثم قال: ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وهو الشراب الحار وهو مؤذٍ للبدن في باطنه، فجَمَعَ في قوله تعالىٰ: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢﴾ بين نوعي الإيذاء والعذاب الظاهر والباطن، وهٰذا مثال وهٰذا مثال، ثم ذكر مثالًا لما حولهم فقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾ وهو الجو الذي يعيشون فيه، وما حولهم.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ من أساليب العرب أنها تطلق لفظة كريم في النفي ويراد بها السوء في المكان أو في الوصف؛ تقول: هٰذه الدار ليست بحسنة ولا كريمة، أي ليست جيدة، فالنفي قد يكون نفيًا في ظاهره للشيء الجيد ولا يُثْبِتُ ما دونه، ولكن ينفى الأصل، يعني لا حسنة ولا كريمة، ولا يعني أنها ليست في

كمال الحسن، وكمال الكرم، وإنما هي دونه، وإنما يقصد منه نفي الأصل، وهٰذا أسلوب شائع في كلام العرب، فمنه قوله جل وعلا: ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وأصل كلمة (كريم) في اللغة فعيل، والكريم عندهم هو ما فاق جنسه في الأوصاف والنعوت، فيقال: فلان من الناس كريم. لأنهم كانوا يتنافسون في الضِّيَافَةِ وفي إنزال الناس، وفي تقديم الطعام لهم، قري الأضياف ونحو ذلك، فجُعِلَ هٰذا الوصفُ للإنسان الذي هو مِضْيَاف، لكن هو في الواقع من معنىٰ كلي عام، ولهٰذا جاء في القرآن أن النبات يكون كريمًا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾[لقمان]، فالنبات يكون كريمًا لأنه يفوق جنس النباتات في أوصافه ونعوته، وهو ما يخرجه الله جل وعلا بسبب المطر.

وكذلك من أسماء الله جل وعلا الكريم لأنه سبحانه فاق الموجودات في نعوت الجلال وصفات الكمال، فكل الموجودات لها صفات، والله جل وعلا له الكرم البالغ نهايةً في صفاته وفي ذاته وفي أفعاله، فالخلق جميعا لا يقربون من إدراك وصفه، وإنما أُعطوا شيئًا مما يَتَّصِفُون به. ولله جل وعلا المثل الأعلىٰ والوصف الأعلىٰ والنعت الأسمىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال جل وعلا بعدها: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ قبل ذلك يعني قبل دخول النار، أو قبل يوم القيامة، واللام في ﴿ذَٰلِكَ ﴾ للبعد، أي في الحياة الدنيا كانوا قبل ذلك مترفين. والترف في القرآن مذموم؛ لأنه مَظِنَّةُ الطُّغْيَان. والترف يَجْمَعُ إِسْرَافًا وَتَبْذِيرًا، والإسراف: مجاوزة الحد في المأذون به، والتبذير: صَرْف المال في المحرم. فحقيقة الترف البحث عن اللَّذَّاتِ علىٰ أي وجه كان، سواء أكانت من حِلٍّ أم من حُرْمَةٍ، وسواء أكانت مأذونًا بها أم ليس مأذونًا بها.

وهٰذا في الواقع صفة الكافر الذي لا يُحِلُّ حَلاَلًا وَلَا يُحَرِّمُ حَرَامًا، وإنما أَلَّهَ هَوَاه، فما أمرته به نفسه أتىٰ به، وما نهته عنه انتهىٰ، وهٰذا في الحقيقة تَأْلِيهٌ للهوىٰ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان:٤٣]، وفي هٰذا ذَمٌّ لهٰذا الوصف، وربما يكون في بعض أهل الإسلام من صِفَةِ الترف، ويكون الترف حينئذ شُعَبًا: منها ما هو مختص بالكافرين، ومنها ما يكون في الكفار وفي غيرهم يعني وفي المسلمين، لكن علىٰ العموم هو مذموم؛ لأنه ليس فيه رعاية لِلْمَأْذُونِ به، ولا رعاية لما حَرَّمَ الله جل وعلا.

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ مر معك في كلام ابن كثير رحمه الله أن للعلماء فيها أقوال، حاصلها أن الْحِنْثَ العظيمَ هو نَكْثُ العهد، وهل العهد هٰذا عهدٌ فيما بين العبد والرب جل وعلا، أو فيما بين العبد والعباد؟ الأقوال تتجه إلىٰ هذين الاتجاهين؛ فمن نظر إلىٰ أن الحِنث هو نَكْثٌ للعهد فيما بين العبد وربه، قال: الحنث العظيم هو الشرك؛ لأن الله جل وعلا عاهد بني آدم وأخذ عليهم الميثاق، وأرسل إليهم الرسل ألا يشركوا به شيئا، وهم يصرون علىٰ مخالفة هٰذا العهد والميثاق، فهو الحنث العظيم لله جل وعلا، يعني بتوحيده ﷻ وبالميثاق، وكذلك عاهدهم ألا يعبدوا الشيطان؛ فقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾[يس] فهٰذا نوع من الحنث.

والحنث الآخر الحنث بين العبد والعباد، مخالفة العهد، وهٰذا يكون بالإخلال بالعهود والمواثيق بأنواعها.

أما اليمين الْغَمُوس التي يحلف بها المرء كاذبًا أو شهادة الزور، أو نحو ذلك فهٰذه قد تدخل في الأولىٰ، يعني فيما بين العبد وربه، وقد تدخل في الثانية.

قوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ هٰذه آيات فيها وضوح وبيانها اللغوي قد يطول بنا شيئًا، لكن ذكر ابن كثير في آخرها في قوله تعالىٰ: ﴿فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أنها الإبل العِطَاشُ الظِّمَاءُ أو المريضة، ونحو ذلك. والنُّزُل جَعَلَه في الضِّيَافَةِ.

وهٰذا أحد معاني الإنزال والنُّزُل، والمعنىٰ الآخر له، أي من حيث اللغة أن النُّزُل هو مكان النزول سواء أكان ممدوحًا أم كان مذمومًا. فالنُّزُل والمنزل وأشباه ذلك هو مكان النزول، فقوله جل وعلا: ﴿هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ إذا جعلنا النزل هنا بمعنىٰ الضِّيَافَةِ – كما قال ابن كثير رحمه الله – فيكون في هٰذا التَّهَكُّم بهم والازْدِرَاء، كما في قوله جل وعلا: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[الدخان]. وإذا جعلنا النُّزُلَ هنا بمعنىٰ المنزل مطلقًا سواء أكان محمودًا أم مذمومًا ففيه وصف لمنزلهم، وهو دار الهوان والعذاب جهنم، أعاذنا الله وإياكم منها.

سؤال:...

الجواب: هو الظاهر لأن أخذ الصحف قبل الميزان، أول شيء تتطاير الصحف، فآخذ كتابه باليمين، وآخذ كتابه بالشمال، ثم بعد ذلك يكون الوزن، والوزن يظهر معه هل سيكون مغفورا له أم لمن شاء الله أن يعذبه وأن يطهره، فهو بشرىٰ له إذا أخذ كتابه باليمين ولو كان من أهل الكبائر أنه سيدخل الجنة لٰكِن ربما عذب قبل ذلك.

الدرس الثامن

﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢ ﴾.

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُقررًا لِلْمَعَادِ، وَرَدًّا عَلَىٰ الْمُكَذِّبِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ، مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ ﴾[الصَّافَّاتِ]، وَقَوْلُهُمْ ذَلِكَ صَدَرَ مِنْهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِبْعَادِ، فَقَالَ: ﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أَيْ: نَحْنُ ابْتَدَأْنَا خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدِرَ عَلَىٰ الْبَدْأَةِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ؛ فَلِهٰذا قَالَ: ﴿ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧ ﴾ أَيْ: فَهَلَّا تُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ! ثُمَّ قَالَ مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩ ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ تُقِرُّونَهُ فِي الْأَرْحَامِ وَتَخْلُقُونَهُ فِيهَا، أَمِ اللهُ الْخَالِقُ لِذَلِكَ؟

ثُمَّ قَالَ: ﴿ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ﴾ أَيْ: صَرَّفْنَاهُ بَيْنَكُمْ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: سَاوَىٰ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠ ﴾ أَيْ: وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ.

﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ ﴾ أَيْ: نُغَيِّرُ خَلْقَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦١ ﴾ أَيْ: مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢ ﴾ أَيْ: قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللهَ أَنْشَأَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، فَخَلَقَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، فَهَلَّا تَتَذَكَّرُونَ وَتَعْرِفُونَ أَنَّ الَّذِي قَدِرَ عَلَىٰ هٰذه النَّشْأَةِ -وَهِيَ البَدَاءة- قَادِرٌ عَلَىٰ النَّشْأَةِ الْأُخْرَىٰ، وَهِيَ الْإِعَادَةُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ، وَكَمَا قَالَ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ ﴾ [الرُّوم: ٢٧]، وَقَالَ: ﴿ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧ ﴾ [مَرْيَم]، وَقَالَ: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ﴾ [يس]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠ ﴾ ؟ [القيامة].

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللَّهمَّ نسألك علما نافعا، وعملا صالحا، وقلبا خاشعا، ودعاء مسموعا، اللَّهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا من العلم والعمل والهدىٰ والبصيرة، يا أرحم الراحمين.

أما بعد؛ فهٰذه الآيات مع ما بعدها فيها تقرير مسائل أنكرها المشركون، وكفر بها الكافرون، وأعظمها مسألة البعث بعد الموت؛ لأن التكذيب به هو أصل قَسْوَة القلب، وعدم الإنابة إلىٰ الله جل وعلا والإيمان برسوله ﷺ، فلهٰذا ابتدأ الله جل وعلا هٰذه الآيات بقوله: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾، ومن العلماء من يجعل هٰذه الآية تبعًا للآيات السَّالِفَة، فيكون ما بعدها وهو قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ إلىٰ آخر الآيات – إنشاء لا علاقة له بهٰذه الآية؛ لأن التكذيب الذي حصل أولًا كان مشتملًا علىٰ التكذيب بالبعث، والتكذيب بالرسالة، والتكذيب بالأُلوهية في وصف أصحاب الشمال فقال جل وعلا لهم: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ يعني وأنتم مقرون بذلك، وأنه لا خالق لكم إلا الله، وأن هٰذه الآلهة والأصنام والأوثان لم تخلقكم ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام، وبما جاء به من أن الله جل وعلا هو الواحد الأحد في ربوبيته وأُلوهيته، وأنه المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

ومن العلماء من يجعلها فاتحةً لتَقْرِيرِ مَسَائِل البعث وطُرُق إثباته، فتكون ابتداءً للآيات التي بعدها في قوله: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي نحن ابتدأنا خَلْقَكم فَلَوْلَا تُصَدِّقُون بِالْبَعْثِ.

ورُجِّح هٰذا الثاني لأنه تعالىٰ قال في أواخر الآيات: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ يعني النشأة الأولىٰ في خلقكم، وإنشائكم من ترابٍ كما خُلِق آدم، وإنشائكم من ترابٍ ثم من مَنِيٍّ كما خُلِق الناس.

وما ذكره الله جل وعلا من تقرير البعث بهٰذه الطريقة العقلية الصحيحة الصريحة – هٰذا أحد الطرق في إثبات البعث في القرآن، وقد نوَّع الله جل وعلا في القرآن الدلائل العقلية التي يُسْتَدَلُّ بها علىٰ أن بَعْثَ الناسِ ورجوعهم إلىٰ ربهم جل وعلا كائِنٌ لا مَحَالَةَ، فَاسْتَدَلَّ اللهُ جل وعلا، وأقام الْحُجَّةَ علىٰ المشركين بأنواع من الْبَرَاهِينِ العقلية، ليكون أمْكَنَ في الحجة عليهم، وليكون أَقْطَعَ للنزاع.

فأحد أوجه تقرير البعث في القرآن وهو من الأوجه التي يعتمدها أهل السنة والجماعة في تقرير الإيمان بالبعث، وباليوم الآخر، وأنه كائنٌ لا محالة، أعني الأوجه العقلية، أن ينظر في النشأة، فإذا نظر الإنسان في نشأته، وأنه خُلِق من مَنِيٍّ، وأنه كان عن شهوة في إلقاء المني في رحم المرأة، ثم بعد ذلك هو

لا يدري شيئًا عن ذلك، وهٰذه شبيهة بشيء لا يرىٰ صار في جوف المرأة، ثم ترعرع ترعرع حتىٰ صار بشرا سويا، وهٰذه هي النشأة الأولىٰ، وكذلك إذا أراد الله جل وعلا إرجاع الناس وإخراج الْوَرَىٰ من القبور، فإن هٰذه العملية تَتَكَرَّرُ؛ لأنه في الابتداء لم يكن في رحم الأم شيء، ثم وُضِع فيه نطفةٌ قَذِرَة يسيرة، ثم تولدت حتىٰ صارت بشرًا سويًّا، فإذن النظر إلىٰ الابتداء أحد البراهين العقلية في أن هٰذا الابتداء لما كان علىٰ هٰذا النحو فإن الإعادة لا يُمْنَعُ منها عقلًا؛ بل هي في مقتضىٰ العقول أيسر وأهون. ولهٰذا قال جل وعلا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[الروم:٢٧]؛ يعني لو كان شيء أهون من شيء، فإن الإعادة أهون من الابتداء، والكل هيّن علىٰ ربِّنا جل وعلا.

والطريقة الثانية في تقرير البعث في الكتاب والسنة – وفي القرآن أظهر – النظر في أن الله جل وعلا أخرج الضِّدَّ من ضِدِّه في هٰذه الدنيا من غير سبب معقول ولا رؤية صحيحة تجعل الضد يخرج من الضد، فالأجسام الباردة الرطبة يُخْرِجُ اللهُ جل وعلا منها أجسامًا جَافَّةً حَارَّةً، وهٰذا هو الذي جاء في آخر سورة يس في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[يس]. فأثبت البعث بهٰذا السبيل، وهو أن الذي أخرج من الشجر الأخضر نارًا – وهو الذي يوصف بأنه رطبٌ وبارد لأجل الحياة التي فيه – فَيُخْرِج منه الله جل وعلا منه نارًا، لِمَا جعل في طبيعته مع وجود الرطوبة ووجود البرودة، فإنه قادر علىٰ أن يُخْرِجَ الضِّدَّ من ضده، والحقيقة أن الأجسام إذا صارت في الأرض، وانحلت الأجسام إلىٰ أجزاء فإنها ليست بإخراج الضد من ضده، وإنما هي إعادة البناء وإعادة الأجزاء، أو إعادة الحياة أو إعادة التركيب، فهو أهون وأسهل من إخراج الضد من ضده، والله جل وعلا قادر علىٰ أن يخرج الضد من ضده كما وصف.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[يس] هٰذه هي الطريقة الأولىٰ.

والطريقة الثانية في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[يس].

وأما الطريقة الثالثة فهي المذكورة أيضًا في آخر سورة يس في تقرير البعث وهي قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾[يس] فإذا كانت السَّمٰوات والأرض علىٰ عظمها وهي أكبر من خلق الناس في رؤية الناس وفيما يشهدون، وإذا كان الله جل وعلا

ابتدعها وهو قادر علىٰ أن يعيدها، وعلىٰ أن يغير حالها، فإن تغيير ما هو أقل شأنًا من السَّمٰوات والأرض أيسر وأهون، فخلق السَّمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس. وهكذا في دلائلَ أُخَر بَسْطُها موجود في كتب الاعتقاد المطولة.

هٰذه الآيات في سورة الواقعة؛ قال جل وعلا: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ يبين جل وعلا هنا هٰذا البرهان، وهو أن الإنسان خلق من مني يمنىٰ ، ويذكر بذلك ويقول: أتنكرون البعث وتأملتم وعملتم حال ما تنمونه؛ لأنه قررنا لكم مرارا ن الهمزة في القرآن إذا جاء بعدها فاء أو جاء بعدها واو، فالفاء والواو عاطفة علىٰ جملة فعلية محذوفة تقدر بالمناسب. وهٰذه سنة العرب وسننها في كلامها أنها إذا جاء الهمز – وغير الهمز أيضا، لكن الهمز أشهر، وهو في القرآن كثير – وجاء بعده جملة موصولة بالفاء أو الواو فإنه يحذف ما قبلها، يحذف الفعل لأن السياق سيدل عليه، ولِأجل ترك ثِقَلِ التركيب.

فتقدير الكلام هنا في قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ هو: أتنكرون البعث بعد تأمل ونظر ما حولكم من الدلائل، فعلمتم ما تمنون – يعني حال ما تمنونه في الأرحام – أأنتم الذين تخلقونه وتأملتم ودرستم ذلك أم نحن الخالقون؟ إلىٰ آخره.

والمقصود بالرؤية هنا الرؤية العملية، و﴿ مَّا تُمْنُونَ ﴾ أي الذي تُمْـنُونَه، وأصل الإِمْنَاءِ في اللغة الإِرَاقَةِ والإِسَالَةِ، ولهٰذا سُمِّيت مِنًىٰ -المشعر والمكان المعظم- لكثرة ما يُمْـنَىٰ فيها من الدماء تقربًا إلىٰ الله جل وعلا. فالمعنىٰ إذن: هٰذا الذي تسيلونه عن شهوة هل أنتم الذين تخلقونه، أم نحن الخالقون؟

والهمز في قوله تعالىٰ: ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ هنا للإنكار، ولاستخدام الهمز هنا قاعدة: وهي أنه إذا كان ما بعد الهمزة مثبتًا فإن الهمزة تكون للتوبيخ والتقرير، وإذا كان منفيًّا فإن الهمزة تكون للإنكار. وهٰذه القاعدة ذكرها ابن هشام في «مغني اللبيب» والسيوطي في «همع الهوامع»، وغيرهما.

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ منفية، فإذن الهمزة هنا إنكارية.

وتسمع كثيرًا من يقول: الخلق في اللغة التقدير. ويستدلون علىٰ ذلك بقوله جل وعلا: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[المؤمنون] يعني المقدرين. وفي هٰذا نظر من أن يقال: الخلق هو التقدير؛ لأن الله جل

وعلا عطف بينهما فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾[الفرقان] فجعل التقدير تاليًا للخلق، وفي هٰذا تمايز ما بين الخلق وما بين التقدير.

ويطلق الخلق في اللغة علىٰ التقدير الموافق للحكمة الذي يراد إنفاذه، يعني ليس تقديرًا مَحْضًا، بل هو تقدير موافق للحكمة، أي موافق للغاية، هٰذا يخلق الشيء أي يقدره، موافقًا لغاية معروفة، ثم ينشئه ثم يحدثه. ومن هٰذا قول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

يريد بقوله: مَا خَلَقْتَ ما قدَّرت موافقًا للغاية التي تريد صالحة للإنفاذ وهو القطع، هٰذا من جهة اللغة، أما من جهة اللفظ الشرعي، فإن كلمة الخلق يُراد منها الإنشاء، إنشاء الشيء بعد تقديره، أي إن التقدير والإنشاء هٰذا كله يُسمَّىٰ خَلْقًا، فليس الخلق هو التقدير وحده، وعليه يُحْمَل قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ أي أحسن المنشئين المبدعين المقدِّرين.

قوله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ يعني جعلنا الموت قَضَاءً لَازِمًا عَلَىٰ كل حَيٍّ، فإن كل حي لا مَحَالَةَ مَيِّتٌ، والموت حقيقة. وحقيقة الموت مفارقة الروح للجسد، فليس الموت هو عدم الحياة، وليس الموت هو انقطاع الحياة، وليس الموت هو كذا وكذا من التعبيرات المشابهة المستعملة، وإنما حقيقة الموت شرعا ومشاهدة أنه يحصل بمفارقة الروح للبدن، إذا فارقت الروح البدن، يقال حينئذ: هٰذا ميِّت.

وهٰذا التقدير: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ يعني هٰذا الشيء، وتقدير الموت بعد تقدير الحياة يدل علىٰ حدوث الأمر علىٰ هٰذا الوجه، يعني أنه ابْتِدَاءٌ بِلَا شيء يُذْكَر ثم حياةٌ ثم موتٌ. ومعنىٰ ذلك أن العودة ممكنة، ولهٰذا وصف الله جل وعلا خلق آدم ليدلنا علىٰ ما سيحصل من البعث، فجعل أول خلق آدم من تراب ثم من طين ثم من حَمَأٍ مَسْنُونٍ ثم من صَلْصال كالفخار.. إلىٰ آخره. هٰذه الخطوات التي ذُكِرَتْ في القرآن في أكثر من مرة تَدَرُّجُها علىٰ هٰذا النحو، والتَّنْصِيصُ عليها لغرض الاستدلال بها علىٰ البعث، وذلك أن الإنسان إذا مات انقلبت هٰذه الخطوات فرجعت حيث بدأت.

فأول ما يُبْدَأُ به بعد الموت إذا وُضِع الميت في القبر أن ينتفخ، ثم يرجع إلىٰ أن يكون حَمَأً مَسْنُونًا متغيرًا لونه، ثم تبدأ هٰذه الأجسام تتجزأ، ثم تصير كالطين، أي الطين الجامد في مكانه لِمَا فيه من بقية الرُّطُوبَةِ، ثم بعد ذلك يكون رَمَادًا وَتُرَابًا.

وهٰذا يدل علىٰ أن الدورة قائمة، وعلىٰ أن البداية كانت علىٰ هٰذا النوع حتىٰ صار بشرا سويًّا، ثم مات، فتَدَرَّجَتْ فيه حتىٰ رجع إلىٰ تراب، وبالتالي معنىٰ ذلك أنه سيخرج بنفس الطريقة، ولهٰذا قال جل وعلا: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[طه]؛ لأن الدائرة سائرة وكاملة، بدأت علىٰ هٰذا النحو، ثم ترجع وتبدأ.

إذن: أدلة البعث كثيرة متوافرة في القرآن وواضحة بيِّنة لا لَبْسَ فيها ولا غموض؛ بل هي من أوضح الأدلة، أي إن أدلة البعث أوضح الأدلة في الغيبيات، بعد أدلة وجود الله ﷻ، لقيام البراهين العقلية الواضحة علىٰ حصوله.

قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يعني فلولا تَذَكَّرُون أنَّ الذي أَنْشَأَكم النَّشْأَة الأولىٰ قادرٌ علىٰ الإعادة وعلىٰ البعث وعلىٰ إرجاعكم إليه، كما بدأكم تعودون.

نكتفي بهذا..

- حياة الإنسان لها أربع حالات:

حياة في الرحم، قبل نفخ الروح، كان قطعة لحم، فإذا نفخت فيه الروح بدأت الحركة، والأطباء الملحدون لا يعترفون بهذا الشيء، لهم تفسير آخر كهربة الجسم، هنا بدأت الحياة، روح ضعيفة لم تتكون التكون الكامل، صارت الحياة في الرحم في الجسم، الروح ليس لها إدراك، لطلم لا تجد الجنين يحس، لأن الروح تعلقها بالبدن ضعيف، بعد ذلك إذا ولد تبدأ الروح تكسب المعارف والمعلومات، السمع البصر والفؤاد وسائل وآلات الروح هي التي شغلت هٰذا الجسم، فإذن الحياة في الواقع ، الحركة والحياة في الجسم، الروح هي المتصلة به،فالتلذذ والتعب يقع علىٰ البدن والروح تبع للجسم لأنها مقيدة به، إذا توفي الإنسان جاءت مرحلة جديدة من التعلق، فالبدن الآن شبيه ملغي لكنه باق، فالحياة تكون للروح، صارت الحياة للروح والبدن تبع، بخلاف من يقول كابن حزم وجماعة أن العذاب والنعيم علىٰ الروح والبدن منتهي ليس كذلك، كما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير» فالعذاب يقع علىٰ الروح والبدن تبع، فالبدن تبع ليس البدن تبع، الروح هي الأصل في التنعم بعد الموت، وصح عن النبي

-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: «نسمة المؤمن طائر يعلق من ثمار الجنة» يعني روح المؤمن، لٰـكِـن الجسم يصيبه العذاب والنعيم علىٰ وجه الحقيقة بكيفية الله أعلم بها.

بعد ذلك يوم القيامة إذا بعث الله الأجساد هنا رجعت الروح إلىٰ الجسد صار هناك حياة أخرىٰ ليست هي البرزخية، إنما هي الحياة الآخرة التي ليس لها نهاية؛ حياة خلود، فإذا صارت حياة خلود فالبدن هنا يعد إعدادا خاصا بأن لا يعطب، فالروح هنا صار تعلقها بالبدن تعلقا جديدا، بحيث إن الحياة -حياة البدن والروح- كاملة. ممكن الجسم يتغير لٰـكِـن الروح باقية.

الدرس التاسع

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

يَقُولُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ؟ وَهُوَ شَقُّ الْأَرْضِ وَإِثَارَتُهَا وَالْبَذْرُ فِيهَا، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أَيْ: تُنْبِتُونَهُ فِي الْأَرْضِ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أَيْ: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ نُقِرُّه قَرَارَهُ وَنُنْبِتُهُ فِي الْأَرْضِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْقُرَشِيُّ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ الجَرْمي، حَدَّثَنَا مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُولَنَّ: زرعتُ، وَلَكِنْ قُلْ: حرثتُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وَرَوَاهُ الْبَزَّارُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ، عَنْ مُسْلِمٍ، الْجَمِيعُ بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ: لَا تَقُولُوا: زَرَعْنَا وَلَكِنْ قُولُوا: حَرَثْنَا.

وَرُوِيَ عَنْ حُجْر المَدَرِيّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وَأَمْثَالَهَا يَقُولُ: بَلْ أَنْتَ يَا رَبِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أَيْ: نَحْنُ أَنْبَتْنَاهُ بِلُطْفِنَا وَرَحْمَتِنَا، وَأَبْقَيْنَاهُ لَكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا، أَيْ: لَأَيْبَسْنَاهُ قَبْلَ اسْتِوَائِهِ وَاسْتِحْصَادِهِ، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾. ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أَيْ: لَوْ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا لظَلْتُم تَفَكَّهُونَ فِي الْمَقَالَةِ، تُنَوِّعُونَ كَلَامَكُمْ، فَتَقُولُونَ تَارَةً: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أَيْ: لَمُلْقَون.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ: إِنَّا لَمُولَعٌ بِنَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: مُعَذَّبُونَ. وَتَارَةً تَقُولُونَ: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ مُلْقَوْنَ لِلشَّرِّ، أَيْ: بَلْ نَحْنُ مُحَارَفون، قَالَهُ قَتَادَةُ، أَيْ: لَا يَثْبُتُ لَنَا مال، ولا ينتج لنا ربح. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أَيْ: مَجْدُودُونَ، يَعْنِي: لَا حَظَّ لَنَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾: تَعْجَبُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ تُفْجَعُونَ وَتَحْزَنُونَ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ مِنْ زَرْعِكُمْ.

وَهَٰذا يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ، وَهُوَ التَّعَجُّبُ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أُصِيبُوا فِي مَالِهِمْ. وَهَٰذا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ تَلَاوَمُونَ. وَقَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ تَنْدَمُونَ. وَمَعْنَاهُ إِمَّا عَلَىٰ مَا أَنْفَقْتُمْ، أَوْ عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ.

قَالَ الْكِسَائِيُّ: تَفَكَّهَ مِنَ الْأَضْدَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَفَكَّهْتُ بِمَعْنَىٰ تَنَعَّمْتُ، وَتَفَكَّهْتُ بِمَعْنَىٰ حَزِنْتُ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه، أما بعد،

فيقول الله جل جلاله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ هٰذا في سياق بيان تفرد الله جل وعلا بالخلق وبأنواع الإنشاء وهو في سياق إثبات المعاد، وإثبات توحيد الإلهية للرب جل وعلا. فقد ذكر الله جل وعلا في الآيات التي قبل ذلك نشأة الإنسان من ماء فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قد ذكرنا لك أن نشأة الإنسان دليل من أدلة البعث بعد الموت؛ لأن الذي أنشأ الإنسان أولا قادر علىٰ أن يعيده ثانيا، بل الإعادة أهون من الابتداء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرُّوم: ٢٧]، ثم ذكر دليلًا آخر علىٰ تفرده بالربوبية والخلق، وهو إنبات النبات وشق البذر ونمو الزرع فقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وحقيقة حرث الأرض أنها سبب من الأسباب لما سيحدث بعدها، ولكن الذي يجعل هٰذا السبب نافعًا ويفعل أشياء ليست في مقدور الحارث هو الرب جل وعلا، ولذلك فإن الحرث شيء مما يعمله ابن آدم، والباقي علىٰ رب العالمين – جل جلاله – مثل جِمَاعِ الرجل لأهله ثم ينتج من ذلك الولد، وكذلك وضع البذر في الأرض، أو وضع الشتلة في الأرض، فينمو هٰذا وتنشق الأرض عن ذاك، هٰذا كله من الله جل وعلا نموًّا ورعاية وتدبيرًا ﷻ، لذلك قال هنا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾؛ لأن الزرع يقتضي الرعاية، وتعاهده بما يصلح له، والله جل وعلا جعل للإنسان سببًا واحدًا وهو الحرث ووَضْع البذر ثم السقي، أما النَّمَاءُ وتَفَتُّق الأرض عن البذور ونمو الشجر بأصناف النمو، فهٰذا ليس للإنسان، فالله جل وعلا هو الذي يُنَمِّي ذلك، كما تَعَاهَدَ الجنينَ في بطن أمه، لهٰذا قال جل وعلا: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

والزراعة ليست في معنىٰ الحرث؛ الحرث معه الرعاية والتعاهد وحصول ما يريده الحارث، وهٰذا كله ليس إلىٰ الحارث في الحقيقة، وإنما هو علىٰ أن فعل السبب في الحرث أن يكون السبب خاليًا من

المضاد. والعبد يفعل الأول، وأما الثاني والثالث فليس إليه، ولهٰذا يصح أن يُثبَت للعبد فعل السبب، ويُنفَىٰ عنه تمام النفع أو تمام الأثر بالسبب، وهٰذا كما قال جل وعلا: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧]. وهنا يمكن أن يقال: وما زرعت إذ حرثت، ولكن الله جل وعلا زرع، ونحو ذلك.

وهٰذا يعني أنَّ العبدَ يَزْرَعُ في الحقيقة، لكن الإنتاج وحصول المقصود ليس إليه، لكن زرع السبب له، مثل الرمي فرمي الإصابة ليست له، لكن ابتداء الرمي له. ولهٰذا لما صار المقصود لا يتحقق إلا بهٰذه الثلاث جميعًا صَحَّ أن يُنْفَىٰ الزرعُ عن الحارث المزارع في هٰذا المقام.

الفائدة الثالثة: أن قوله جل وعلا هنا: ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ لا ينفي أن يُسمَّىٰ الحارث والمزارع زارعًا ومُزارعًا، فقد أثبته الله جل وعلا في آية أخرىٰ في آخر سورة الفتح فقال جل وعلا: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾[الفتح:٢٩] فالإنسان زارع وحارث، لكن الزرع بالمعنىٰ الكامل الذي فيه التعهد والرعاية والإنتاج إلىٰ آخره هٰذا هو تمام المقصود فهٰذا إلىٰ الله جل وعلا.

ولهٰذا تأدبت طائفة من السلف رعاية لهٰذه الآية، وصاروا لا ينسبون الزرع لأنفسهم، وهٰذا من باب الاجتهاد والأدب رعاية لهٰذه الآية، وإلا فلو قال رجل: أنا زرعت فلا شيء عليه في ذلك؛ لأنه يريد بذلك أنه قام بالسبب. قال جل وعلا: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ والكلام علىٰ ذلك كالكلام علىٰ قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

وحقيقة الحرث أنه العمل الدائم، ولهٰذا يسمىٰ الإنسان حارثًا لأنه دائم العمل ولا يخلو في حياته من عمل لهٰذا جاء في الحديث «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ هَمَّامٌ وَحَارِثٌ»؛ لأن الإنسان لا يخلو أن يكون همَّامًا أي كثير الهم، يهتم بهٰذا ويهتم بهٰذا ويعمل، وأنه حارث يعني يعمل العمل الكثير فحياته هي كذلك.

وقول ابن كثير هنا أن الحرث هو شق الأرض هو باعتبار هٰذا السياق لا باعتبار مدلول اللغة؛ لأن السياق يقتضي أن الحرث هنا هو العمل الدائم بشق الأرض لوضع البذور أو لغرس الغراس، وهٰذا كثير فانتبه له في تقييد المفسرين للمعنىٰ اللغوي العام بما يناسب السياق، وهٰذا ليس حصرًا، وإنما هو من باب مناسبة المعنىٰ للسياق وإلا فمعنىٰ الحرث أوسع من ذلك.

﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ مر علينا المعنىٰ.

قال جل وعلا: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ يعني لو شاء الله جل وعلا أن يجعل هٰذا الذي رأيتم من الزرع الذي استوىٰ ومن النبات الذي استوىٰ وارتفع وحمل ثماره. لو يشاء الرب جل وعلا لجعل تلك الجنة المزدهرة حُطامًا في ليلة، فبعد ذلك تظلُّون متفكهين ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

وقوله هنا: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ حقيقة التَّفكُّه في اللغة التنوع، وسُمِّيت الفاكهة المعروفة بالفاكهة لكثرة أنواعها، ولتنوع الإنسان في أخذها وفي استطابة هٰذا وهٰذا وهٰذا منها، فحقيقتها التنوع. ويكون الإنسان فاكهًا إذا كان متنوعًا فيما يعمل، فيقال له: فاكِه إذا تنوَّع نعيمه، كما يُقال له: فاكه إذا تنوع سوءه وهكذا.

وقد جاء هٰذا كله في القرآن قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[يس] فاكهون يعني مُنعَّمون بأنواع النعيم، أي بمتنوعِ نعيمهم. وكذلك وصف القرآن الكفار بأنهم فاكهون أي يتنوعون فيما يتنعمون أو يتنوعون في السوء إلىٰ آخره.

واختلف المفسرون في تفسير ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾، أما ابن كثير فيقول: إن تفسير ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ هو ما بعدها وهو قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ وذلك؛ لأن قولهم: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ نوع من أنواع الكلام، ثم ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ نوع آخر، ومعناه أنه ثمَّ أشياء أخرىٰ من قولهم لم تذكر؛ لأجل أنهم تفكَّهوا بالكلام، أي نوَّعوا كلامهم.

وقول من قال أن: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ يعني تتلاومون أو نحو ذلك، ففيه أيضًا تنوع الحديث؛ لأنه في اللوم هٰذا يلوم هٰذا، وهٰذا يلوم ذاك إذا كانوا جماعة كثيرين، فكل واحد ينوع حديثه في لوم صاحبه.

والمقصود من ذلك أن اختلاف السلف في تفسير ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ راجع إلىٰ فهمهم لمعناها في اللغة وفي السياق القرآني، وحقيقتها التنوع فيما دل عليه السياق تارة التنوع في النعيم وتارة التنوع في العذاب، مثل ما قيل إنها من الأضداد أي تطلق علىٰ هٰذا وهٰذا؛ لأن أصلها التنوع، تنوع ما يُؤكل بخصوص الأصناف المخصوصة سميت فاكهة، التنوع في التقلب في أنواع الحياة كل هٰذا راجع إلىٰ هٰذا المعنىٰ.

فإذن قولهم: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ من أنواع الأقوال في هٰذا، أي فيما لو جعلت زراعاتهم حُطامًا، والمُغْرَم هو الخاسر المدين، والمحروم هو الذي حُرِم وفقد ما يأمله. وإذا ما حصل للزراعة آفة

فصارت حطامًا فهو في الواقع يكون خاسرًا، وغالب الناس يكون مدينًا؛ لأن المزارعين في الغالب يحتاجون إلىٰ أشياء وأشياء في أثناء زراعاتهم، وأيضًا يكون محرومًا.

فإذن قول بعضهم: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ تنوع في وصف الحال فهم في الواقع مغرمون، ومحرمون وما شئت من الأوصاف، وهٰذا من أنواع التفكّه في الأوصاف وفي المقال.

وفي مجيء تفكههم في قولهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ مؤكدًا بإنَّ وباللام المزحلقة ما يفيد أنهم كانوا ينكرون قدرة الله جل وعلا عليهم؛ لأن الكلام لا يؤكد إلا إذا كان المخاطب في مقام الشك أو الإنكار، أو مُنَزَّل منزلة الشاك والمنكر، وهٰذا مبحث لغوي معروف كثيرًا في القرآن.

ويفيدك في ذلك علم المعاني في البلاغة. فإذا أردت أن تُلْقي الخبرَ علىٰ من هو خال من المعلومة؛ فتقول له: أنا مُغْرَم، أو تقول: نحن مُغْرَمون، فإذا كان لديه بعض الشك في هٰذا الأمر أو بعض الإنكار، أو تريد أنت أن تُنزله منزلة الشاك والمنكر لينتبه لكلامك وليتفكر فيه وليتدبره، فإنك تأتي بـ(إن) فتقول: (إنني مغرم) أو (إنا مغرمون).

فإذا أردت أن تنبهه إن كان شكه أعظم، أو أردت أن تنزله منزلة الشاك المنكر فتأتي بالتأكيد باللام الثانية بعد إن المؤكدة، فتقول: إنا لمغرمون، أي انتبهوا إن كنتم في سُبات، انتبهوا من هٰذه الغفلة، انتبهوا مما كنتم فيه أيها الشاكون أيها المنكرون أو ما أشبه ذلك.

وهٰذا نحو قوله مثلًا في كتاب الله: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العصر]. فلم يقل المولىٰ جل وعلا: والعصر الإنسان في خسر، أي الإنسان في خسر في خسارة، وكان يمكن أن يقال هٰذا لو أن الناس يقرون بذلك، لو أن المخاطبين يقرون بهٰذه الحقيقة، لكن في الواقع المشركون والكفار لا يقرون بهٰذا، بل يرون أنهم الرابحون، ولذلك قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ لأنهم منكرون أو شاكون أو منهم من ينزل منزلة المنكر والشاك، لذلك أكد الله جل وعلا الكلام بإن واللام معا فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾.

ويأتينا هٰذا أيضًا في مثل قوله جل وعلا في سورة يس: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾[يس] فأولًا بدأت

الرسالة فإرسال الله عز وجل إليهم الرسولين، ثم لما صاروا مُنكرين عزز الله جل وعلا بثالث ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾؛ لأنهم صار لديهم نوع من الإنكار، فلما أنكروا وتمادوا في الجحود والإنكار وقالوا: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ ﴾ صار هنا التأكيد بأكثر وأكثر إلىٰ أقصىٰ درجات التأكيد قالت الرسل: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾، وذلك لأن هٰذا المقام مقام النهاية في التأكيد في مثل جملة: أنا مرسل إليكم، أو نحن مرسلون إليكم. ولهٰذه نظائر كثيرة، وهي مفيدة في فهم معنىٰ الآي وتقدير الكلام.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ يَعْنِي: السَّحَابَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ يَقُولُ: بَلْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أَيْ: زُعَاقًا مُرًّا لَا يَصْلُحُ لِشُرْبٍ وَلَا زَرْعٍ، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أَيْ: فَهَلَّا تَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ فِي إِنْزَالِهِ الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ عَذْبًا زُلَالًا! ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النَّحْلِ].

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ مُرَّةَ، حَدَّثَنَا فُضَيل بْنُ مَرْزُوقٍ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ إِذَا شَرِبَ الْمَاءَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَقَانَا عَذْبًا فُرَاتًا بِرَحْمَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا».

قوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُم﴾ الآيات ظاهرة الدلالة علىٰ توحّد الله جل وعلا وتفرده في ربوبيته، وفي الإنعام علىٰ خلقه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل] ﷻ.

وذكرنا في الآيات السالفة أن في هٰذه الآيات دلالة علىٰ ثلاث مسائل توحيد الربوبية، توحيد الإلهية، والبعث بعد الموت. وكل دليلٍ للربوبية هو دليلٌ للإلهية، كل دليلٍ يُستدَل به علىٰ توحيد الله جل وعلا في ربوبيته وعلىٰ تفرده جل وعلا بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتصريف الأمر وتدبير الملكوت، وهو دليلٌ علىٰ أنه سبحانه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه، وذلك بطريق اللزوم، فإنه يلزم من أن الذي يدبر الأمر واحد أنه هو الذي يعبد، فكيف يُعبَد من لا يدبر! كيف يُعبَد من لا يخلق! ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف] هٰذا ينفيه العقل البسيط فضلًا عن العقل الكامل.

أما البعث ففي كل هٰذه الآيات فيها دليل علىٰ بعث الله جل وعلا الأموات يوم القيامة، وذلك لأن فيها استخراجًا، ففي النشأة الأولىٰ استخراج، وفي الزرع استخراج من الأرض، والماء أيضًا إذا نزل من المزن فإن العادة أنهم يشربون منه مباشرة، ثم يشربون منه باستخراج، وهٰذا يدل علىٰ أن الذي أعطاهم ذلك قادرٌ علىٰ أن يخرج الإنسان بعد موته.

ثم أيضًا في خصوص إنزال الماء من المزن تنبيه علىٰ أن النشأة الأخرىٰ شبيهة بذلك لما ثبت في

الحديث عن النبي ﷺ أن الله جل وعلا يأمر السماء يوم القيامة بين النفختين أن تنزل ماءً قوله ﷺ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ». أي تنزل السماء ماء كمني الرجال ينبت هٰذه البذور التي عجب الذنب فتنبت فتصبح كالشجر. والذي أنزل المطر أول مرة من المزن هو الذي أنزل المطر الثاني وهو الذي يبعث الأموات بعد موتهم.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ ﴾ المزن هو السحاب الكثيف، والإنزال لا يطلق إلا علىٰ ما كان من العلو، فأنزل يعني جاء من العلو، ولهٰذا يسمىٰ السحاب والمزن سماءً، لأنه في العلو. وهٰذا أيضًا من أدلة إثبات علو الرب جل وعلا؛ لأنه وصف الماء الذي ينزل من السحاب بأنه ينزل لأنه في العلو، وكذلك إنزال القرآن يُسمَّي إنزالًا لأنه يأتي من العلو، كذلك إنزال جبريل عليه السلام ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]؛ لأنه من العلو، وفي هٰذا كله إثبات علو الله جل وعلا علىٰ خلقه قال.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ الأُجاج الفاسد الذي لا يصلح للشرب إما لأنه مُرٌّ أو مالح، أو لأنه فاسد بأنواع النتن ونحو ذلك. وغالبًا ما يُستعمل الأُجاج فيما كان غير مناسب من جهة أنه ليس بعذب كما وصف الله جل وعلا البحرين بأن هٰذا عذب فرات وهٰذا ملح أُجاج، وفي قوله: ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾[فاطر:١٢] ما يدل علىٰ أن لفظ الأُجاج لا يقتصر علىٰ كونه مالحًا لأنه قال: ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾، فهو تنقل من وصف إلىٰ وصف أعم كما هو معروف.

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ ﴾ في هٰذا تنبيه علىٰ أن كل نعمة استحدثها الله جل وعلا لعباده، أو استدامها علىٰ عباده توجب الشكر، والنعم المستحدثة يشعر بها العبد فيشكر، ويظهر عليها أنها جديدة ونحو ذلك. لكن النعم المستدامة كإنزال الماء من المزن، حصول الأمطار، والماء الموجود عند الإنسان، وما يستديمه من النعم هٰذه هي التي تحتاج إلىٰ تنبيه.

ولهٰذا قال جل وعلا هنا في ذكر النعم المستدامة: ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ ﴾ أي هي بحاجة إلىٰ تنبيه تلو تنبيه للإنسان في نفسه وغيره بألا يأخذه الإلف-إلف النعم- إلىٰ عدم شكرها ونسيان المتفضل بها، مثل الصحة التي لا يشعر الإنسان بقيمتها؛ لكنه إذا مرض واستحدث الله له شفاءً فسوف يُحس بالنعمة، لكن الصحة المستدامة سنين طويلة نعمة دائمة، لذلك يغفل الكثيرون عن شكر مثل تلك النعم المستدامة، وهكذا في النعم المتنوعة.

ولهٰذا قال جل وعلا في كثرة النعم وتنوعها: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم] وقال في آية سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل:١٨] والآيتان في مقام الآية الواحدة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ أي لن تعدوها ولو عددتم فلن تحصوا، ولو عددتم فسيقابل الإنسان هٰذه النعم لو عدَّها بالظلم والكفران. ومع ذلك فالله جل وعلا غفور رحيم.

ولهٰذا قال جل وعلا هنا في سورة الواقعة: ﴿ فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ وقليل في الحقيقة من يشكر النعم المستدامة، أما النعم الحادثة فالانتباه لها كثير حتىٰ من الكفار كما في قوله جل وعلا: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ ﴾ [لقمان: ٣٢] وفي هٰذه الآية تنبيه العباد علىٰ عدم الغفلة عن النعم المستدامة الحاصلة، وألا يأخذهم الإلف والسُّنَّة إلىٰ عدم الشكر أو الغفلة عن شكر الله عليها.

وذكرنا مرارًا أن حقيقة الشكر في اللغة المقابلة، ولهٰذا يقال للنخلتين المتقابلتين الناشئتين من نخلة واحدة، أي الفرخين يقال لهما شَكِيرٌ، لأن هٰذه في مقابلة تلك، أي إنهما خرجتا متقابلتين.

أما الشكر الشرعي فهو أن تُقابَل النعم بالاعتراف بها باطنًا أنها من الله جل وعلا وحده، وأنه هو المتفضل بها، وأن تُقابَل النعم بالإقرار بها لسانًا وتحدثًا كما في قوله جل وعز: ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحىٰ] وأن تُقابِل النعم بالعمل الصالح شكرًا، فإذن يكون للشكر في الشريعة ثلاثة أركان:

الركن الأول: شكر القلب بالاعتقاد والاعتراف.

الركن الثاني: شكر اللسان بالتحدث بنعمة الله ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾ ﴾.

الركن الثالث: بالعمل الصالح ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ].

وهٰذا بخلاف الحمد، فقد ذكرنا هٰذا قبل ذلك، فالحمد يكون باعتقاد القلب، والثناء باللسان، وليس ثم عمل في الحمد.

ومن الاستطراد في هٰذا البحث الذي بحثه بعض العلماء حول قول القائل: «الحمد لله حمد الشاكرين» هل يصلح، أو هل من الناسب أن يقال ذلك؟.

من أهل العلم من قال: لا يصلح هٰذا، لأن الشكر يكون في مقابلة النعمة، والحمد يكون ثناء بالقلب

وباللسان لا في مقابلة نعمة، بل لما يستحقه المحمود مما هو عليه من صفات الكمال، فكأن قول القائل: «الحمد لله حمد الشاكرين» يعني الثناء عليه لمقابلتنا بالنعم، وفي هٰذا قصور عن مجيء الشرع بالحمد لله جل وعلا مطلقًا.

والقول الثاني: أن هٰذا لا بأس به، فلا بأس أن يقول القائل: الحمد لله حمد الشاكرين، لأن الشاكر يُثني علىٰ الله جل وعلا، ويعترف بنعمه بقلبه وبلسانه، وهٰذا داخل في الحمد.

ولهٰذا فإن هٰذه العبارة ليست مستعملة عند السلف لأجل قصورها في المعنىٰ، هٰذا من باب الاستطراد، ونقف عند هٰذا.

واضح الآن أن الشكر في مقابلة نعمة، هٰذا صحيح، فيقول:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

وهٰذا صحيح، وهي: يدي بالعمل، ولساني بالنطق: والضمير المحجب الذي هو في القلب. واضح أن مقابلة النعمة تكون بشكرها، تكون بهٰذه الموارد الثلاثة. ولذلك لما بحثوا في الحمد والشكر أيهما أعم، وأيهما أخص قالوا: الحمد أعم والشكر أعم، والحمد أخص والشكر أخص باعتبار الوجه، ولهٰذا يصدق عليه أن بينهما عمومًا وخصوصًا وجهي، أي يجتمعان في مادة ويفترقان في شيء.

فالحمد من حيث المورد مختلف عن الشكر، ومن حيث الحقيقة مختلف أيضًا عنه؛ لأن الشكر مقابلة، والحمد ثناء.

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

وتقدير الكلام: أفادتكم النعماء ثلاثة مني، وهي يدي ولساني والضمير المحجب.

الدرس العاشر

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ أَيْ: تَقْدَحُونَ مِنَ الزِّنَادِ وَتَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ أَصْلِهَا.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ أَيْ: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ جَعَلْنَاهَا مُودَعَةً فِي مَوْضِعِهَا، وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: الْمَرْخُ، وَالْأُخْرَىٰ: العَفَار، إِذَا أُخِذَ مِنْهُمَا غُصْنَانِ أَخْضَرَانِ فحُك أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، تَنَاثَرَ مِنْ بَيْنِهِمَا شَرَرُ النَّارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: أَيْ تُذَكِّر النارَ الْكُبْرَىٰ.

قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا [أَنَّ] رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَا قَوْمِ، نَارُكُمْ هٰذه الَّتِي تُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً! قَالَ: «قَدْ ضُربت بِالْمَاءِ ضَرْبَتَيْنِ -أَوْ: مَرَّتَيْنِ- حَتَّىٰ يَسْتَنْفِعَ بها بنو آدم ويدنوا منها».

وَهٰذا الَّذِي أَرْسَلَهُ قَتَادَةُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، فَقَالَ:

حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّناد، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ نَارَكُمْ هٰذه جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ».

وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةٌ فَقَالَ: «إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا».

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، وَمُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزِّنَادِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، بِهِ. وَفِي لَفْظٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ فُضِّلَت عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا».

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو الْخَلَّالُ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ الْحِزَامِيُّ، حَدَّثَنَا مَعْن بْنُ عِيسَىٰ الْقَزَّازُ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ عَمِّهِ أَبِي السُّهَيْلِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتُدْرُونَ مَا مَثَلُ نَارِكُمْ هٰذه مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ؟ لَهِيَ أَشَدُّ سَوَادًا مِنْ دُخَانِ نَارِكُمْ هٰذه بِسَبْعِينَ ضِعْفًا».

قَالَ الضِّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ: وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ، وَلَمْ يَرْفَعْهُ، وَهُوَ عِنْدِي عَلَىٰ شَرْطِ الصَّحِيحِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالنَّضْرُ بْنُ عَرَبِيٍّ: مَعْنَىٰ ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ الْمُسَافِرِينَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَقَالَ: وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «أَقْوَتِ الدَّارُ إِذَا رَحَلَ أَهْلُهَا».

وَقَالَ غَيْرُهُ: الْقِيُّ والقَوَاء: الْقَفْرُ الْخَالِي الْبَعِيدُ مِنَ الْعُمْرَانِ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْمُقْوِي هُنَا الجائع.

وقال ليث ابن أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ لِلْحَاضِرِ وَالْمُسَافِرِ، لِكُلِّ طَعَامٌ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا النَّارُ. وَكَذَا رَوَىٰ سُفْيَانُ، عَنْ جَابِرٍ الْجُعْفِيِّ، عَنْ مُجَاهِدٍ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلَهُ: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ الْمُسْتَمْتِعِينَ، النَّاسَ أَجْمَعِينَ. وَكَذَا ذُكِرَ عن عكرمة.

وَهٰذا التَّفْسِيرُ أَعَمُّ مِنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّ الْحَاضِرَ وَالْبَادِيَ مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ الْكُلُّ مُحْتَاجُونَ لِلطَّبْخِ وَالِاصْطِلَاءِ وَالْإِضَاءَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ. ثُمَّ مِنْ لُطْفِ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ أَوْدَعَهَا فِي الْأَحْجَارِ، وَخَالِصِ الْحَدِيدِ بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُ الْمُسَافِرُ مِنْ حَمْلِ ذَلِكَ فِي مَتَاعِهِ وَبَيْنَ ثِيَابِهِ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي مَنْزِلِهِ أَخْرَجَ زَنْدَهُ وَأَوْرَىٰ، وَأَوْقَدَ نَارَهُ فَأَطْبَخَ بِهَا وَاصْطَلَىٰ، وَاشْتَوَىٰ وَاسْتَأْنَسَ بِهَا، وَانْتَفَعَ بِهَا سَائِرَ الِانْتِفَاعَاتِ. فَلِهٰذا أُفْرِدَ الْمُسَافِرُونَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي حَقِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لَهُ بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي خِدَاش حَبَّانَ بْنِ زَيد الشَّرعبي الشَّامي، عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ قَرَن، أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: النَّارِ وَالْكَلَأِ وَالْمَاءِ».

وَرَوَىٰ ابْنُ مَاجَهْ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثلاثٌ لَا يُمْنَعْنَ: الْمَاءُ وَالْكَلَأُ وَالنَّارُ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا مِثْلُ هٰذا وَزِيَادَةٌ: «وَثَمَنُهُ حَرَامٌ». وَلَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ (عَبْدُ اللهِ بْنُ خِرَاش بْنِ حَوْشب) وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أَي: الَّذِي بِقُدْرَتِهِ خَلَقَ هٰذه الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَضَادَّةَ الْمَاءَ الْعَذْبَ الزُّلَالَ الْبَارِدَ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مِلْحًا أُجَاجًا كَالْبِحَارِ الْمُغْرِقَةِ. وَخَلَقَ النَّارَ الْمُحْرِقَةَ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْعِبَادِ، وَجَعَلَ هٰذه مَنْفَعَةً لَهُمْ فِي مَعَاشِ دُنْيَاهُمْ، وَزَاجِرًا لَهُمْ فِي الْمَعَادِ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن علىٰ عبده، وله الحمد علىٰ هدايته ونوره، و﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[الفرقان].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا.

أما بعد؛ فأسأل الله جل وعلا لي ولكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا إلىٰ ما يحب ويرضىٰ، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

اللّٰهمَّ علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نُسِّينا، ومُنَّ علينا بتلاوته أطراف النهار وآناء الليل لعلك ترضىٰ.

مر معكم فيما مضىٰ أن هٰذه السورة سورة الواقعة مشتملة علىٰ تقرير البعث، وانقسام الناس في الدنيا وفي الآخرة إلىٰ ثلاثة أقسام: إلىٰ مقرَّبين سابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وأن من وسائل تقرير بعث الله جل وعلا للعباد من جهة عقلية أن ينظر العبد في مبتدأ الخلق، في أنه خلق من لا شيء مذكور، فبدأ الله جل وعلا الدلائل علىٰ وحدانيته وقدرته علىٰ الإعادة بذكر ما خُلِق منه الإنسان وهو المني فقال جل وعلا: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾. ثم دلَّل علىٰ ذلك بذكر ما خُلِق منه الإنسان، ثم مضىٰ إلىٰ أشياء أُخَر.

ونِعم الله جل وعلا علىٰ عباده وأصنافُ آلائه هي تذكر بأن الرب هو الله جل وعلا وحده، وتقرر توحيد الربوبية. وتوحيد الربوبية في هٰذا المقام، يقتضي كمال عَدْل الله جل وعلا، وكمال قدرته، وكمال حُكْمه الذي يشمل جميع الأزمنة والأمكنة. وعدله سبحانه يقضي بأنه جل وعلا لا يساوي بين عمل الأشرار وعمل الصالحين ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

ولهٰذا تجد كثيرًا في القرآن ما يقرر الرب جل وعلا البعث لتقرير توحيد الربوبية، فتوحيد الربوبية مُستلزِم لتوحيد الإلهية، كما أنه مُستلزِم لكمال عدل الرب جل وعلا؛ بل دال عليه، ومستلزم لإعادة الناس لليوم الآخر حتىٰ يُجزىٰ المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

فهٰذه الآيات من قوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ هي في دلالة إثبات توحيد الربوبية، والمقصود منه إثبات البعث بعد الممات الذي هو موضوع هٰذه السورة، وانقسام الناس بعد الرجوع إلىٰ الرب جل وعلا إلىٰ الأصناف الثلاثة.

وفي الآيات السابقة ذِكْرُ شيء من عظيم نعم الله جل وعلا وبديع صنعه فقال سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ يذكِّر الله جل وعلا بهٰذه النار التي تخرج كما هو في معهود العرب من ضدها، ولهٰذا ذكَّر بالشجرة، والعرب تعلم الشجرتين اللتين تنبتان في أرضهم، ويُورَىٰ منهما النار باحتكاك هٰذه بتلك، أي باحتكاك الأخضر بالأخضر.

والدلالة من ذلك أي من هٰذه الآيات علىٰ تقرير بعث الله جل وعلا أن في الشجر رطوبة، وفيه الماء، ومنه يخرج ضد ذلك وهو النار التي فيها الحرارة وفيها الجفاف وفيها الإحراق، فمن طبيعة الأخضر اشتماله علىٰ الماء، واشتماله علىٰ البرودة، واشتماله علىٰ الرطوبة، وهٰذا ضد وصف النار بجميع الصفات، فلهٰذا جعل الله جل وعلا إخراج الضد من ضده دليلًا علىٰ أن البعث أيسر، لأن إحياء العظام ليس فيها إخراج الضد من ضده؛ بل الإنسان خلق من تراب، ثم إذا مات تحلل بعض بدنه في التراب فهو يخرج ويبعث من جنسه الأول لا من ضده.

فإذن في ذكر النار دلالة علىٰ ربوبية الله جل وعلا، ودلالة علىٰ إمكان البعث بعد موت الناس. ومعنىٰ تورون تقدحون أو تُشعلون أو نحو ذلك من الإخراج؛ لأن كلمة تورون قد يُعنىٰ بها الإدخال، وقد يُعنىٰ بها الإخراج، قد يُعنَىٰ بها الدفن، وقد يُراد بها البعث، يُرَاد بها إخراج الشيء وبعثه، وهي هنا بمعنىٰ تقدحون كما هو واضح، قال جل وعلا: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾.

سبق أن الشجر والشجرة في لغة العرب يطلق علىٰ النبات الذي تتداخل بعض أغصانه ببعض، وفي هٰذا معنىٰ التشاجر وهو التداخل، ولهٰذا غاير الله جل وعلا في سورة الرَّحمٰن بين النجم والشجر في قوله: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾[الرَّحمٰن] فنفهم من هٰذه الآية أن في الشجر أغصانًا، وفيه كبر واشتباك بعضه ببعض من حيث الصفة.

معلوم أن الإنسان لا يستطيع أن يخرج الضد من ضده إنشاءً وخلقًا، وإنما يمكنه ذلك استفادةً ممَّا خلق الله جل وعلا، فالمنة والنعمة من الله سبحانه.

ثم قال سبحانه بعد ذلك: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعني صيرنا نار الدنيا تذكرةً، أي صيرنا نار النار الصغرىٰ أي نار الدنيا تذكرة للنار الكبرىٰ وجهنم أعاذنا الله جل وعلا منها.

ولهٰذا قالت طائفة من أهل العلم: إن كل أنواع المؤذيات هي تذكرة لأعظم العذاب الذي يكون في جهنم، لأن ما في جهنم من العذاب متنوع، عذاب بالنار، وعذاب بأشياء أخرىٰ في داخل النار والعياذ بالله. ولهٰذا كل ما تراه من أنواع المؤذيات فهو يذكر بأعظم أنواع العذاب في جهنم أعاذنا الله وإياكم منها، وكل ما تراه أيضًا مما يؤنس وتنعُم به فهو تذكار للجنة.

فإذن أمامك دائمًا ما يذكر بالجنة وما يذكر بالنار، كأنواع الحشرات، وأنواع الهوام، والحر، والمرض وأنواع ما يؤذي وينغص، في كل هٰذا تذكرة للمؤمن بضربٍ من التأمل تارة، وبوضوح تارة أخرىٰ، وفيه أيضا تذكره بأنواع العذاب الذي يكون في القبر و يوم القيامة. وكذلك أنواع ما يُسَرُّ به، ويتنعم به فيه تذكار بالجنة فتنبه لهٰذا في قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾.

وفي قلب المؤمن دائمًا الحياة، فلا يغفل عن أنواع آلاء الله جل وعلا، وأنواع تذكرته لعباده فيما يرون ويصبحون ويمسون عليه، لأن الحجة قائمة في ربوبيته سبحانه كما قال أبو العتاهية:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

قال: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي مع كونها تذكرةً جعلناها متاعًا، والمتاع اسم جامع لكل ما يُستمتَع به، ويستمتع به أي يستفاد منه في إمتاع الإنسان، فقد يكون أثاث البيت متاعًا في اللغة، والمرأة أيضا متاع؛ بل الدنيا كلها متاع، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ». فكل ما يُستمتع به يقال له متاع، ولذلك صارت النار أيضا متاعًا لأنها من أعظم ما يُتمتع به أصلًا ووسيلةً فهي متاع في التدفئة، ومتاع أيضًا في الاستفادة منها في طهي الطعام ونحو ذلك.

أما كلمة المقوون في قوله: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ فقد فسرها أكثر العلماء بالمسافرين، وهٰذا هو التفسير المشهور عند السلف. وقد قال بعض المفسرين كما هو منقول عن مجاهد وعن غيره المقوين، جميع الناس فيشمل المسافر، وغير المسافر، لأن أقوىٰ المكانَ: جعله قَفْرًا خاليًا، وأقوت الدارُ إذا خَلَتْ من أهلها، وهٰذا ينطبق علىٰ المسافر، وينطبق علىٰ الحاضر، لأن الحاضر بانتقاله من بيته في النهار يُقوِي الدار، أي يخليها، والمسافر يُقوي البلد والدار، أي يُخْلِيها.

وأيضًا له صلة من جهة أخرىٰ بأنه هو أيضًا يقوي الأرض إلىٰ آخر ذلك. والمقصود أن تفسير المقوين بالتفسير العام تفسير مجاهد له وجهه من اللغة، وأن كل إنسان يدخل في المقوين بضرب من التفسير.

وأما التفسير الأكثر فهو أن المقوين هم المسافرون، والاستمتاع بالنار في حقهم أكثر من غيرهم كما ذكر ابن كثير في آخر كلامه، وهٰذا كثير في القرآن في أنه يخص المنتفع إما أصلًا وإما بانتفاعه أكثر من غيره فيخصه بالاسم، أو يخصه بالوصف، أو يخصه بالصفة والشعر.

وذلك كما في وَصْف القرآن بأن الله جل وعلا يُنذر به الناس أجمعين تارة، وتارةً أنه ينذر به أهل الإيمان ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾[الأعراف]، وقال جل وعلا في آية يس ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٠ ﴾.

وقال جل وعلا في الخشية أيضًا في إنذار من يخشىٰ في سورة فاطر: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[فاطر: ١٨] مع أنه قال في آية أخرىٰ: ﴿ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ۝٣٦ ﴾[المدثر] ونحو ذلك من الآيات التي فيها تخصيصٌ وفيها تعميم، وهٰذا لحصول الانتفاع، أي إما أن يُقصَد بها أصل الصفة، أو حصول الانتفاع الأكثر مما يقتضي التخصيص به.

وهٰذا قاعدة في القرآن كله يُرِد هٰذا وهٰذا، وليس في هٰذا تعارض؛ بل هٰذا لأجل التخصيص والانتفاع، وكأن المنتفع به أكثر أو المنتفع به أصلًا دون غيره، كأنه وُجِّه إليه ونُسِب إليه دون غيره.

وهٰذه الآية فيمن فَسَّر المقوين بالمسافرين، ومن فسَّر المقوين بالناس أجمعين تدخل في هٰذا إذا تأملته، والمقصود من هٰذا الاستطراد أن يتضح لك وجهة السلف إذا اختلفوا في التفسير فابن تيمية كما تعلمون يسميه اختلاف تنوع، واختلاف تضاد، وأن هٰذا يدخل من اختلاف التنوع.

لكن لماذا اختلفوا اختلاف التنوع هٰذا؟ أي ما منشأ اختلاف التنوع، لماذا خَصَّ بعضهم، وعَمَّ بعضهم؟ ولهٰذا عدة احتمالات وعدة اتجاهات، منها هٰذا الاتجاه الذي ذكرناه في هٰذه الآية بخصوصها.

ثم قال جل وعلا بعدها: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤ ﴾ هٰذه الفاء للتعقيب، لكل ما سبق وليست خاصة بذكر النار، وهي في مقام أن تكون تعقيبية علىٰ ما سبق معنًىٰ، أو علىٰ جملةٍ مقدرة، أو أن تكون الفاء ابتدائية، لأن الفاء عند علماء حروف المعاني تأتي للابتداء أيضًا، ولكن الأول أولىٰ وهو أظهر في الدلالة أنه جل وعلا هو المتفرد بالمحاسبة وباستحقاق العبادة وحده.

فإذا علمت أنه سبحانه هو الذي يخلق الإنسان من ماء يمنيه، وأنه جل وعلا هو الذي قدر الموت ﴿ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ﴾، وهو جل وعلا الذي يُنزِّل الماء، وهو الذي يبارك في الحرث ﷻ، وهو الذي ينزل

الماء الزلال، والنار التي بها تنضج الأطعمة التي يأكلها الناس ويستدفئون بها، يعني هٰذه الأصناف من النعم.

فإذا تدبرت كل هٰذا: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ فالتسبيح إذن نتيجة لهٰذا الأمر، وسبِّح أمر بالتسبيح، وقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ يعني نزِّه اسم ربك. وأسماء الله جل وعلا عظيمة جليلة كثيرة، وهٰذا يعني أن كلمة «اسم» صلة والمقصود فسبح ربك، أي نزِّه ربك العظيم عن كل النقائص والعيوب؛ لأن معنىٰ التسبيح في لغة العرب التنزيه من النقائص والإبعاد مما لا يُحمَد أن يُضاف إلىٰ الرب جل وعلا، أو أن يُضاف إلىٰ ما أُضيف إليه، والتنزيه من ذلك كله، وهٰذا في كلمة سبح وسبحان والتسبيح، واشتقاق ذلك بأنواعه، ومنه قول الأعشىٰ في شعره المعروف:

أَقُــولُ لَمَّــا جَــاءَنِي فَخْــرُهُ سُــبْحَانَ مِــنْ عَلْقَمَــةَ الْفَــاخِرِ

أي لما جاء من يفخر ويمدح، قال: سبحان من علقمة الفاخر، أي إبعادًا وبعدًا، كأنه لا يستحق هٰذا أصلًا فينزهه من الفخر، أو أنه يُبعِد الفخر منه لعدم استحقاقه لذلك.

فإذن معنىٰ سبح نزِّه، وأبعد ربك العظيم من كل صفات النقص وسمات عدم الكمال. وجاء التسبيح في القرآن متعلقًا بخمسة أشياء:

الأول: تنزيه الله جل وعلا عن النقص والعيب في ربوبيته ﷻ. ويدخل في هٰذا الربوبية في ملكه سبحانه، وملكه جل وعلا من حيث كونه صفةً له. ويدخل في الربوبية أيضًا هنا ما يدبره جل وعلا في أصناف خلقه.

والثاني: تنزيهه جل وعلا عن النقص والنقائص والعيب وعدم الكمال في أسمائه وصفاته، فهو سبحانه المنزَّه كلُّ اسم من أسمائه المتضمنة لصفات جلاله وجماله ونعوت كماله، منزَّه سبحانه عن النقص فيها بكل وجه من الوجوه، فأسماؤه سبحانه وصفاته دالة علىٰ ذاته الجليلة العظيمة، تبارك ربنا وتقدس المنزهة عن كل نقص وعيب.

الثالث: تنزيهه جل وعلا عن النقص في الأُلوهية فإذا قلت: سبحان الله أو سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلىٰ، فيتجه أيضًا إلىٰ تنزيهه جل وعلا عن النقص في استحقاقه للإلهية وحده ﷻ. والنقص يكون لو كان معه شريك جل وعلا يُعبَد أو كان معه واسطة، أو كان له جل وعلا واسطة في الدعاء والتوسل، ونحو ذلك من الآلهة التي عُبِدت.

فإذًا التوحيد يكون في التسبيح، لهٰذا ترىٰ أن هٰذه الثلاثة، هي أنواع التوحيد، وفي القرآن في الآيات فيما يتعلق بهٰذه وستعلق بهٰذه، ويتعلق بذاك. فهنا مثلا تعلقت بالربوبية وبالأسماء والصفات وهي مستلزمة للتسبيح في الإلهية كما هو معلوم، وفي مواضع أخرىٰ تجد أن التسبيح مُنصَبٌّ علىٰ الألوهية في مواضع، منصب علىٰ القرآن وهكذا كما سيأتي في الأقسام الأخرىٰ.

أما الرابع: فهو تنزيهه جل وعلا عن النقص والنقائص في خلقه وقدره جل وعلا. وخَلْقُه يعني ما خلق في السَّمٰوات وفي الأرض من أنواع المخلوقات، وقَدَرُه جل وعلا ما قدَّر لهٰذه المخلوقات التي خَلَق من تقدير يوافق حكمته جل وعلا، فتنزيهه سبحانه عن النقائص في خلقه، يعني عن ألا تكون علىٰ وجه الحكمة وعلىٰ وجه تمام الخلق، قال جل وعلا مثلًا لما ذَكَر السماء في أول سورة الملك: ﴿ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ ﴾ [الملك].

وكل شيء خلقه جل وعلا قد جعل له قَدْرًا وقَدَرًا فقال سبحانه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢ ﴾ [الفرقان:٢]. وهٰذا كله موافق للحكمة العظيمة التي بها جعل الله جل وعلا الأشياء تسير علىٰ ما قدر من حكمته.

فإذن تنزيهه سبحانه عن النقص في خلقه وقدره عن أن يكون خلق شيئًا باطلًا: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ﴾[ص:٢٧]، وقال جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ ﴾[الحجر:٨٥]، فالله جل وعلا لم يتخذ لهوًا، ولم يخلق السماء والأرض باطلًا، ولم يخلقهما إلا بالحق، فإذن هو منزه عن النقص في الحكمة في أي خلق خلقه، أو أي شيء قدره جل وعلا.

والخامس والأخير: هو تنزيهه جل وعلا عن أن يكون في كلامه الشرعي وأمره الشرعي نقص في وجه من الوجوه، فكلامه جل وعلا موصوف بنهاية الكمال، وكتابه الذي أنزل هو نهاية الإحكام، وغاية الإحكام، فهو جل وعلا الذي أكمل الشريعة وأتم الدين فلا نقص في حكم من أحكامها، ولا ينسب إلىٰ الله جل وعلا النقص في أي حكم من الأحكام، فيما شرع وأمر به دينه ﷻ.

وهٰذه لا شك إذا ضممت إليها الحمد وهو إثبات الكمالات في هٰذه الأنواع الخمسة علمت وجه كون السماوات والأرض ومن فيهن، وما فيهن يسبح بحمد الله جل وعلا ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ [الإسراء:٤٤]. ولهٰذا يعلم من عقل وأحب الله جل وعلا، وعلم بديع جلاله وجماله ﷻ أن التوحيد

الخالص في التسبيح والحمد، فإذا جمعت حقيقة بين تسبيح الله جل وعلا وبين حمده فقد وحدته تمام التوحيد. لهٰذا كانت الصلاة كلها تسبيح وحمد وتكبير واستغفار، الصلاة كلها دائرة علىٰ هٰذه الأربعة، تسبيح، وحمد، وتكبير، واستغفار. وهٰذا هو حقيقة توحيد الرب جل وعلا.

قال سبحانه: ﴿ فَسَبِّحۡ ﴾ وهٰذا أمر. وتسبيح الله واجب وفرض علىٰ كل أحد قولًا اعتقادًا. ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ﴾ العظيم هنا نعت للرب جل وعلا، أو نعت للاسم أي الاسم العظيم أو الرب العظيم جل وعلا، وأسماؤه سبحانه عظيمة والرب جل وعلا هو العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نكتفي بهذا..

الدرس الحادي عشر

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

قَالَ جُوَيبر، عَنِ الضَّحَّاكِ: إِنَّ اللهَ لَا يُقْسِمُ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَكِنَّهُ اسْتِفْتَاحٌ يَسْتَفْتِحُ بِهِ كَلَامَهُ.

وَهٰذا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ. وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّهُ قَسَمٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ. ثُمَّ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: (لَا) هَاهُنَا زَائِدَةٌ، وَتَقْدِيرُهُ: أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَيَكُونُ جَوَابُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾.

وَقَالَ آخَرُونَ: لَيْسَتْ (لَا) زَائِدَةً لَا مَعْنَىٰ لَهَا، بَلْ يُؤْتَىٰ بِهَا فِي أَوَّلِ الْقَسَمِ إِذَا كَانَ مُقْسَمًا بِهِ عَلَىٰ مَنْفِيٍّ، كَقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «لَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ» وَهَكَذَا هَاهُنَا تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: «لَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كِهَانَةٌ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ كَرِيمٌ».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْقَسَمَ بَعْدُ فَقِيلَ: أُقْسِمُ.

وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾، فَقَالَ حَكِيمِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي: نُجُومَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ نَزَلَ جُمْلَةً لَيْلَةَ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُفَرَّقًا فِي السِّنِينَ بَعْدُ. ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ هٰذه الْآيَةَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فنجَّمته السَّفرة عَلَىٰ جِبْرِيلَ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَنَجَّمَهُ جِبْرِيلُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ عِشْرِينَ سَنَةً، فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ نُجُومِ الْقُرْآنِ.

وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَة، وَمُجَاهِدٌ، والسُّدِّيّ، وَأَبُو حَزْرَة.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ فِي السَّمَاءِ، وَيُقَالُ: مَطَالِعُهَا وَمَشَارِقُهَا. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَعَنْ قَتَادَةَ: مَوَاقِعُهَا: مَنَازِلُهَا. وَعَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ انْتِثَارُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: الْأَنْوَاءَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مُطِرُوا، قَالُوا: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ أَيْ: وَإِنَّ هٰذا الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَعَظَّمْتُمُ الْمُقْسِمَ بِهِ عَلَيْهِ، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أَيْ: إِنَّ هٰذا الْقُرْآنَ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ لَكِتَابٌ عَظِيمٌ. ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ أَيْ: مُعَظَّمٌ فِي كِتَابٍ مُعَظَّمٍ مَحْفُوظٍ مُوَقَّرٍ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا شَرِيكٌ، عَنْ حَكِيمٍ -هُوَ ابْنُ جُبَيْرٍ- عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قَالَ: الْكِتَابُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ.

وَقَالَ الْعَوْفِيّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَةَ. وَكَذَا قَالَ أَنَسٌ، وَمُجَاهِدٌ، وعِكْرِمَة، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْر، وَالضَّحَّاكُ، وَأَبُو الشَّعْثَاءِ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَبُو نَهِيك، والسُّدِّيّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، حَدَّثَنَا ابْنُ ثَوْرٍ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قَالَ: لَا يَمَسُّهُ عِنْدَ اللهِ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَمَسُّهُ الْمَجُوسِيُّ النَّجِسُ، وَالْمُنَافِقُ الرَّجِسُ. وَقَالَ: وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ لَيْسَ أَنْتُمْ أَصْحَابَ الذُّنُوبِ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: زَعَمت كُفَّارُ قُرَيْشٍ أَنَّ هٰذا الْقُرْآنَ تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء]. وَهٰذا الْقَوْلُ قَوْلٌ جَيِّدٌ، وَهُوَ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْأَقْوَالِ الَّتِي قَبْلَهُ.

وَقَالَ الْفَرَّاءُ: لَا يَجِدُ طَعْمَهُ وَنَفْعَهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أَيْ: مِنَ الْجَنَابَةِ وَالْحَدَثِ. قَالُوا: وَلَفْظُ الْآيَةِ خَبَرٌ وَمَعْنَاهَا الطَّلَبُ، قَالُوا: وَالْمُرَادُ بِالْقُرْآنِ هَاهُنَا الْمُصْحَفُ، كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَىٰ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَىٰ أَرْضِ الْعَدُوِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ. وَاحْتَجُّوا فِي ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي مُوَطَّئِهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزم: أَنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ: أَلَّا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ. وَرَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَاسِيلِ، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: قَرَأْتُ فِي صَحِيفَةٍ عِنْدَ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ».

وَهٰذه وِجَادةٌ جَيِّدَةٌ. قَدْ قَرَأَهَا الزُّهْرِيُّ وَغَيْرُهُ، وَمِثْلُ هٰذا يَنْبَغِي الْأَخْذُ بِهِ. وَقَدْ أَسْنَدَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، وَعُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، وَفِي إِسْنَادِ كُلٍّ مِنْهَا نَظَرٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أَيْ: هٰذا الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ سِحْرٌ، أَوْ كِهَانَةٌ، أَوْ شِعر؛ بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْية فِيهِ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ نَافِعٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

اللّٰهمَّ نسألك العلم النافع والعمل الصالح، اللّٰهمَّ بارك لنا في أعمالنا وأقوالنا، واجعل العلم زادا لنا في طريقنا إليك يا أكرم الأكرمين.

أما بعد؛ فيقول الله جل وعلا في هٰذه السورة العظيمة سورة الواقعة: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله جل جلاله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ الفاء هنا استئنافية، وهي تأتي كثيرًا في القرآن وفي لغة العرب، ويُرَاد بها الاستئناف يعني البَدْء. والأصل في الفاء الترتيب أن يترتب ما بعدها علىٰ ما قبلها، والترتيب يدل علىٰ الترتيب اللفظي، والترتيب في المعنىٰ، وهٰذا معناه أن ما بعدها مرتبط في المعنىٰ بما قبلها، ليس من جهة جملة مع جملة، وإنما ارتباط الآيات مع ما قبلها من آيات السورة مباشرة، أي بالآية التي قبلها الفاء. وقولهم: للاستئناف؛ يعني أنها تقطع وتستأنف كلامًا جديدًا، والارتباط العام من جهة المعنىٰ قائم.

وقوله تعالىٰ: (لاَ أُقْسِمُ) جاء كثيرًا في القرآن في غير ما آية، كقوله جل وعلا: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾[القيامة] وكقوله جل وعلا: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ [البلد].

وللحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ عدة أقوال:

القول الأول: أنه قَسَمٌ، وليس نفيًا للقسم، وتكون ﴿لَا﴾ زائدة من جهة العمل الإعرابي، ولكنها صلة، وزيادة الحرف في اللغة تدل علىٰ تأكيد الكلام، وعلىٰ تثبيته وإقراره حتىٰ قال بعض العلماء: إنها في مقام تكرار الجملة، كما قاله ابن جني في «الخصائص»، وقاله غيره من حذاق العربية.

وعلىٰ هٰذا يكون معنىٰ قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ أقسم بمواقع النجوم أقسم بمواقع النجوم،

وجاءت علىٰ صورة النفي أو بمظهر النفي، كأن الأمر من عظمته وجلاله والتأكيد عليه بحيث إنه ظاهر بيِّنٌ لكل نفس قريب من كل ناظر، بحيث إنه لا يحتاج في التأكيد عليه إلىٰ قسم، ومعلوم أن القَسَم إنما هو للتأكيد علىٰ المُقسَم به؛ لأنه تأكيد الكلام بذكر مُعظَّمٍ أو بذكر ما يُؤكَّد به.

الثاني: أن هٰذا نفي للقسم، وليس بقَسَم أصلًا.

الثالث: أنه نفي لأمر يُفهَم من السياق ويُقدَّر، كما تقول: لا، وتسكت، ثم تستأنف قائلًا: أقسم بكذا، فتكون (لا) مردودة إلىٰ الكلام الذي سبق. وعلىٰ هٰذا فمعنىٰ الكلام ليس الأمر كما تقولون من أن القرآن كهانة، أو أنه شعر، ليس هٰذا صحيحا، لا، ثم أكَّد فقال: ﴿ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ إلىٰ أن أتىٰ جواب القسم ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ ﴾. وهٰذا القول مع ما سبق قال به طائفة من العلماء بالتفسير ومن علماء السلف.

والقول الأول هو المعتمد من أنه أن (لا) هنا صلة زائدةٌ إعرابًا، أو زائدةٌ في مقام تكرار الكلام، ولفظ (زائدة) هٰذا لا يُعبر به أكثر العلماء؛ بل يقولون: (صلة) تأدبًا مع القرآن، لكن في اللغة عند علماء اللغة والنحو يقولون في مثلها: إنها زائدة في مقام التأكيد.

ولهٰذا نظائر في القرآن كقوله جل وعلا: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾[آل عمران:١٥٩] فما هنا في ﴿ فَبِمَا ﴾ صلة، مثل (لا) في الآية التي معنا.

وتقدير الكلام هنا فبرحمة من الله لنت لهم، وجاء هٰذا للتأكيد، يعني فبرحمة من الله لنت لهم تأكيدًا علىٰ أنه ﷺ إنما لأَنَ لهم برحمة من الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك قوله: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ ﴾[المائدة:١٣] أي فبنقضهم ميثاقهم لعناهم وهكذا.

فهي مثل ما قال بعض العلماء: لا يجوز أن يُقالَ إن في القرآن زائد، ولا يمكن أن تقول (لا) زائدة، وهٰذا من باب التأدب. وليس معنىٰ أنها زائدة أن وجودها كعدم وجودها، وأنها لا حاجة لها، ليس الأمر كذلك، لكن هٰذا اصطلاح، اصطلاح نحوي ولغوي يعبرون بقولهم: زائدة؛ علىٰ أنها زادت لفظًا من جهة العمل الإعرابي، والمعنىٰ هو التأكيد علىٰ ما جاءت فيه هٰذه الصلة، ويطلق عليها صلة من باب التأدب.

وقوله جل وعلا: ﴿ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ قَسَمٌ بمخلوق، فالله جل وعلا يقسم بما شاء من مخلوقاته كيف شاء ﷻ؛ لأنه هو الذي خلقها ﷻ. وقسمه بها ليس لعظمتها؛ ولكن للدلالة على أن القسم بها عظيم، ولهٰذا قال هنا جل وعلا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾، ومعلوم أن الشريعة جاءت بنهي المسلم عن أن يَحلِف أو يُقسم بشيء من المخلوقات كما قال ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»، وقال ﷺ أيضًا: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ».

لكن الله ﷻ يُقسِم بما شاء من خلقه للدلالة على شأن المُقسَم به وهو هٰذا المخلوق، وأنه ينبغي التأمل فيه والتدبر، ثم للدلالة على عظمة القسم كما قال هنا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾. والقسم يحتاج إلى ثلاثة أشياء:

إلى مُقْسِم، وإلى مُقْسَمٍ به، وإلى مُقْسَمٍ عليه.

والمُقْسِم هنا: الله ﷻ، فهو الذي أقسم ﷻ.

والمقسَم به هنا: مواقع النجوم، ويأتي تفسيرها إن شاء الله.

والمقسَم عليه: قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾ ومعنى المقسم عليه يعني الذي جاء من أجله القسم، فلماذا أقسم المُقسم؟ ولماذا حلف الحالف؟ أقسم وحلف للتأكيد على كذا، وهٰذا هو الذي يسميه علماء العربية جواب القسم، وجواب القسم يعني الشيء الذي من أجله أقسم. ويسمى المُقسَم عليه جواب القسم تمثيلًا له بجواب الشرط؛ لأن بدونه يكون الكلام ناقصًا.

مثلًا نقول: من يذهب إلى المسجد. فإذا وقفنا فسوف تكون الجملة ناقصة والمعنى غير مكتمل، لأن المعنى لن يستقيم حتى يكمل المتكلم ما ابتدأ به من الشرط، وهٰذا يكون في الأفعال دون الأسماء.

وقوله: ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ وقد اختُلِف في المواقع والنجوم على أقوال، والمواقع هنا مواقع النجوم، ولكن هل المواقع مواقع مكانية أو مواقع زمانية؟ قولان: من أهل العلم من قال: إن المواقع هنا مكانية، ومنهم من قال: المواقع زمانية، وسواء أكانت النجوم نجوم تنزيل القرآن، أم كانت النجوم التي في السماء.

فالنجوم جمع نجم، والنجم في لغة العرب هو ما يَنْجُم أي يظهر ثم يغيب، ثم يظهر ثم يغيب، أي ما كان له صفة الظهور والاختفاء، ثم الظهور والاختفاء، ثم الظهور والاختفاء. ولهٰذا قِيل للنجم الذي في السماء لأن ضوءه يذهب ويجيء، ولأنه أيضًا يظهر ويغيب في السماء مرات، ويظهر بعد فترة.

وكذلك قيل للنبات الذي لا ساق له: نَجْمٌ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾[الرَّحمٰن] فالشجر هنا علىٰ أحد القولين هو ما له ساق، والنجم ما لا ساق له؛ لأن هٰذا النبات يتأثر بالمطر، فإذا جاء المطر من الله جل وعلا سُقِي هٰذا النبات فإنه يظهر فإذا انعدم المطر غاب هٰذا النبات، ثم يظهر مرة أخرىٰ مع نزول المطر وهكذا.

إذن معنىٰ النجم ما يَنْجُمُ، أي يظهر ثم يعتريه الذهاب ثم يرجع مرة أخرىٰ. ولهٰذا سُمِّي نجمًا في هٰذا الموطن.

واختُلِف هنا في تفسير ما المراد بالنجوم هنا؟؛ لأن هٰذا الأصل في معناه ما سبق ذكره؛ ولأن المُقْسَم عليه هنا هو تنزيل القرآن، فمنهم من نظر إلىٰ المُقسَم عليه فقال إن لمواقع النجوم هنا علاقة بتنزيل القرآن، ومنهم من أعمل الأصل وهو أن النجوم هي النجوم التي في السماء؛ لأن الأصل في القرآن أنه إذا أُطلِق النجم فيُراد به نجوم السماء.

فأما القول الأول وهو أن مواقع النجوم هي مواقع تنزيل القرآن، إما المواقع المكانية وهو أنه أُنزِل إلىٰ بيت العزة في ليلة القدر جملة واحدة، ثم نُزِّل مُفرَّقًا بَعدُ في أمكنة مختلفة منها المكي ومنها المدني، ومنها ما نزل في أثناء مسيره ﷺ إلىٰ الطائف أو إلىٰ تبوك أو إلىٰ نجد إلىٰ آخره، أو أن المراد بالمواقع مواقع النجوم المواقع الزمنية لتنجيم القرآن، ومعنىٰ تنجيم القرآن كما هو ظاهر هو نزول القرآن شيئًا فشيئًا في أثناء نزوله، وفي الوقت الذي توقَّف فيه تنزيل القرآن علىٰ النبي ﷺ، ففي هٰذا معنىٰ الظهور والاختفاء الذي في النجم، فإذن تكون مواقع التنزيل، مواقع التنجيم، مواقع النجوم، أي الأزمنة التي نزل فيها القرآن علىٰ النبي ﷺ، وهٰذا هو معنىٰ كون جبريل عليه السلام نزل به، ثم نزل مُفرَّقًا علىٰ النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة.

أما النجوم التي في السماء فقال بعضهم إنه موقعها يوم القيامة، وذلك أن مواقع جمع موقع، وقد يُراد بالموقع الموقع الذي في السماء، مكان النجم في السماء أو مكان وقوعه علىٰ الأرض.

ونُفصِّل هٰذا الأمر لتنتبه دائمًا لماذا يختلف السلف في تفسير القرآن اختلاف تنوع؟ لأنهم ينظرون إلىٰ الاجتهاد في المعاني اللغوية، فتارة يُحدد لهم المعنىٰ النظرُ إلىٰ السياق واللحاق، وتارةً ينظرون للمعنىٰ مُجرَّدًا أي المعنىٰ اللغوي، وتارة ينظرون إلىٰ ما جاء فيه من التفسير عند من سبقهم.. إلىٰ آخره.

وهٰذا واضح من أن النجوم تتناثر يوم القيامة، وأنها تقع علىٰ الأرض، فإذا نظروا إلىٰ أنها إذا وقعت علىٰ الأرض فهٰذه مواقع مختلفة، أي أمكنة مختلفة للوقوع، ومنهم من ينظر إلىٰ مواقعها أي أماكن وجودها في السماء، فيكون مواقعها في السماء يعني الأمكنة المختلفة التي توجد فيها من السماء الفسيحة، وبحسب ذلك تنوعت الأقوال.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ معلوم أن ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ هنا للتأكيد، وأُكِّد الكلام هنا بأنواع من المؤكِّدات: هي القَسَم الأول في ﴿أُقْسِمُ ﴾ ثم نفي القسم ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ ثم أُكِّد الكلام مرة أخرىٰ بقوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ ﴾ بإن المؤكدة وباللام المزحلقة التي تدل علىٰ التأكيد، ثم بقوله ﴿عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ وهٰذا يعني أن لدينا خمس مؤكدات مختلفة جاءت في هٰذا الموطن، القَسَم الأول، ثم النفي وإن واللام وقوله: (عظيم) بعدها. وهٰذا يدلك علىٰ عظم شأن هٰذا القسم.

ولا شك أن معرفة معاني قَسَم الله جل وعلا، وما من أجله أقسم ﷻ، إنما يتأثر به أهل العلم وينتفعون؛ لهٰذا نبه تعالىٰ هنا إلىٰ أن المنتفع بعظم هٰذا القسم هم أهل العلم؛ فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ أي هو قسم عظيم؛ ولكن لكون أكثر الناس لا يعلمون صار انتفاعهم بما أقسم الله جل وعلا به ضعيفًا.

ولابن القيم رحمه الله كتاب مهم، ولكن قليل من يطلع عليه، وهو الكتاب المسمَّىٰ «أَقْسَامُ الْقُرْآنِ» وأقسام جَمْع قَسَمٍ، ففي هٰذا الكتاب أنواع القَسَم في القرآن الكريم، وقد بحث ابن القيم المسألة بحثًا جيدًا، وفيه فوائد مهمة في التفسير؛ فيحسن بكم الرجوع إليه ومطالعته.

قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ هٰذا هو المقسَم عليه، وهو جواب القسم ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ وأُكِّدَ بإن واللام. وقوله: ﴿قُرْآنٌ﴾ القرآن هٰذا اسمٌ خاص لهٰذا الذي يُتلَىٰ ويُقْرَأ، أي إن الذي أَنْزَل الله جل وعلا علىٰ نبيه ﷺ من الكتاب يسمىٰ قرآنًا؛ لأن له صفة القراءة، أي أنه يقرأ ويتعبد بقراءته، وهو كتاب أيضًا لأنه مجموع في كتاب في اللوح المحفوظ عند الله جل وعلا وفي بيت العزة، وكذلك جمع في المصحف بعد أن أذن الله جل وعلا بجمعه بعد النبي ﷺ.

فإذن القرآن في معني القراءة، وبهٰذا قال جل وعلا: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء] أي قراءة القرآن في صلاة الفجر، ومنه قوله الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا

أي بقرآن القراءة. فإذن سُمِّي ما أَنْزَل الله جل وعلا قرآنًا لأنه يُتعبَّد بقراءته فقال جل وعلا: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

وتطلق الكريم في اللغة علىٰ ما فاق جنسَه في صفات الكمال. ومعنىٰ قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ أن الناس يتنوعون فيما يقرؤون ويسمعون، فالمقروءات والمسموعات تختلف عند العرب وأهل الجاهلية، وتختلف أيضًا في كل زمان ومكان، لكن ما الذي يفوق جميع هٰذه المقروءات والمسموعات في صفات الكمال التي من أجلها تتعلق القلوب بالمقروء وتحرص عليه سماعه وحفظه، ذلك هو كتاب الله جل وعلا.

فإذا كان في المقروءات المختلفة ما يُرغِّب فيها فإنها قاصرةٌ قاصرةٌ قاصرةٌ بالنسبة إلىٰ هٰذا الكلام العظيم، الذي هو كلام الرب عَزَّوَجَلَّ. لهٰذا فإن في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ ﴾ ما ينبه إلىٰ المقروءات التي ينشغل بها الناس، وبقوله: ﴿كَرِيمٌ ﴾ ما يجعل هٰذا المقروء يفوق جميع المقروءات في صفات الكمال التي يرغب من أجلها الناس فيما يقرؤون. لهٰذا تنتبه دائمًا إلىٰ هٰذه الكلمة كلمة (كريم) من أنها تأتي في القرآن بحسب ما تأتي فيه من سياق، فيطلق علىٰ النبات أنه كريم ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] أي إن النبات كريم.

وأيضًا أطلق علىٰ الرجل أنه كريم ليس في البذل للأضياف، بل في صفات الكمال. والنبي ﷺ كريم بالنسبة للأنبياء، فهو عليه الصلاة والسلام سيد الأنبياء والمرسلين وهكذا. ومن أسماء الله جل وعلا الكريم، ومن صفاته جل وعلا أنه كريم، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه المتوحد في صفات الكمال والجلال والجمال جل جلاله وتقدست أسمائه.

إذن تطلق كلمة كريم في اللغة علىٰ ما فاق جنسه في أنواع صفات الكمال، وهٰذا يتنوع بحسب ما أطلقت عليه. وهٰذا يدلك في هٰذا الموطن علىٰ أن شأن القرآن من جهة كونه مقروءًا ومن جهة كونه مكتوبًا قد فاق جنس المقروءات والمكتوبات، وهٰذا يُحتِّم الإقبال عليه والاعتناء به، وأنه ليس بِسِحْرٍ ولا كهانةٍ؛ بل تلك ضالة مضلة.

وقوله جل وعلا بعدها: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ أكثر العلماء والمفسرين علىٰ أن المقصود بالكتاب هنا الكتاب الذي في اللوح المحفوظ، أي إن القرآن كان مودعًا ومكتوبًا في اللوح المحفوظ، ويكون كذلك

أُنزِل في (بيت العزة) مكتوبًا، كما أُنزِل أيضًا إلىٰ الناس وصار مكتوبًا في الصحف، ومجموعًا في كتاب بين الناس، وله صفة أخرىٰ أنه قرآن أي كونه مقروءًا متعبدًا بقراءته وأشباه ذلك.

ومرتبة الكتابة أو نوع الكتابة كونه كان في كتاب عند الله جل وعلا، مثل ما ذُكِر هنا في اللوح المحفوظ، هٰذه سابقة عند أهل السنة والجماعة لتكلُّم الله عَزَّوَجَلَّ بكتابه أي بالقرآن، فالله جل وعلا أكرم هٰذا المُتعبَّد به الذي هو القرآن الذي سينزله علىٰ نبيه ﷺ وهو كلامه جل وعلا بأن جعله مكتوبًا في كتاب مكنون في اللوح المحفوظ.

وهٰذا لما قرب تنزل القرآن علىٰ النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنزل جملة واحدة كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان]، كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[القدر].

فالقرآن كلام الله جل وعلا تكلم به، والأقوال فيه متنوعة أشهرها: مذهب المعتزلة ومن شابههم أنه مخلوق، والعياذ بالله، وهو الذي نادىٰ عليهم السلف، وأئمة السنة من كل جانب، بالضلال والكفر ممن قال إن القرآن مخلوق.

والثاني قول الأشاعرة والماتريدية والكلابية ومن شابههم، بأن القرآن تكلم الله جل وعلا في الأزل، ثم جعل كلامه هٰذا في كتاب في اللوح المحفوظ، ثم لما جاءت بعثة النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فاض الكلام النفسي علىٰ جبريل فوعىٰ جبريل الكلام من جهة المعنىٰ القائم بالنفس وإلا فإن الله لم يتكلم به، فإن الكلام به كان أزلا، فأخذه جبريل ؛ بعضهم يقول أخذه جبريل من اللوح المحفوظ وبعضهم يقول: أنه فاض علىٰ نفس جبريل بالمعنىٰ وجبريل أداه باللفظ، ولهٰذا حاصل قول الأشاعرة في الواقع يقولون بخلق القرآن بشكل أو بآخر، وهٰذا هو الذي اعترف به بعض حذاقهم، لٰكِن ليس هٰذا من الملتزم به عندهم وليس منسوبا إليهم، لٰكِن الحاصل أن القرآن القديم متكلم به أما الذي بين ايدينا ليس كذلك.

ولهٰذا يفضلون النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- علىٰ القرآن، ولٰكِن يقولون القرآن الذي بين أيدينا وليس القرآن الأزلي، وهٰذه مباحث ردية لكنها ليست مشهورة عنهم.

والمقصود أن قوله جل وعلا: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ يدل علىٰ أن هٰذا القرآن محفوظ، وكونه محفوظًا في اللوح المحفوظ يدل دلالة قاطعة علىٰ أن الله جل وعلا تكفل بحفظه إلىٰ أن يسرىٰ عليه فلا يبقىٰ في الأرض ولا آية.

وجاء بيت العزة هٰذا في بعض الأحاديث والآثار، وهو بيت موجود في السماء الدنيا يقابل الكعبة،

جعله الله جل وعلا مَحَلًّا لإكرام كتبه، ولكن الأحاديث التي جاءت في بيت العزة ليست أحاديث واضحة يمكن الاعتماد عليها، ولذلك نفت طائفة من العلماء بيت العزة أصلًا، قائلين إنه ما جاء فيه إلا آثار لا تصح حتىٰ (نزول القرآن إلىٰ بيت العزة جملة واحدة) فيه نظر، ولكن إسناده عن ابن عباس صحيح. والأصل في هٰذا أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يجتهد في مثل ذلك، لأن هٰذا ليس مما يُدرَك بالاجتهاد ولا بالنظر، إنما يكون عن توقيف، وليس في إثباته محذور، بل في إثباته إكرام للقرآن وما لا محذور فيه وهو من أقوال السلف ولا إشكال مما لا يدخل فيه الاجتهاد، فإن القول به هو سِمَة وهَدْي أئمة السنة.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي لا يمس هٰذا الكتاب المكنون الذي في اللوح المحفوظ إلا المطهرون، والمطهرون هنا هم الملائكة، أي ملائكة الرَّحمٰن جل وعلا الموكلة بحفظ هٰذا الكتاب في اللوح المحفوظ.

واستُدل بهٰذه الآية استدل علىٰ أنه لا يمس القرآن إلا طاهر، أي من البشر. ووجه استدلال العلماء بها أن المقصود بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ يعني هٰذا الذي بين أيدينا وليس الذي في اللوح المحفوظ، هٰذه وجهة.

والوجهة الثانية: وهي الأظهر أن المراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ اللوح المحفوظ، لكنه جل وعلا لما ذكر كتابه المكنون في اللوح المحفوظ، ذكر أنه لا يمسه إلا المطهرون من النجاسة، والمطهرون من الأذىٰ وهم الملائكة عليهم السلام.

وإذا كان هٰذا في الملائكة الذين لا تمسهم النجاسات أصلًا، ولا يطرأ عليهم الحدث، فإن في هٰذا تنبيهًا علىٰ أن من يطرأ عليه الحدث لا يمس هٰذا الكتاب المكنون إلا إذا تطهر؛ لأن ذكر الملائكة في هٰذا الموطن بهٰذا الوصف وهو التطهر، وأنهم مطهرون؛ فيه تنبيه ظاهر ولا شك علىٰ أن من تَحِله الأحداث يجب عليه ألا يمس هٰذا الكتاب إلا وهو مطهر بالتطهير الشرعي وهو رفع الحدث عن نفسه.

وهٰذا هو ما جاء في الوجادة في حديث عمرو بن حزم في الكتاب الذي كتبه الرسول ﷺ إليه، والذي فيه «أَنْ لاَ يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلاَّ طَاهِرٌ». وقد اختلف العلماء في هٰذا الحديث فمنهم من صححه ومنهم من ضعفه باعتبار أنها وجادة منقطعة إلىٰ آخره.

ولكن المعمول به عند الأئمة، أئمة الفقه أن هٰذا الحديث حديث عمرو بن حزم في ذكر كتاب النبي ﷺ إليهم هٰذا حديث طويل مشتمل علىٰ مسائل من العلم كثيرة، وقد ذكره النسائي في سننه الصغرىٰ

والكبرىٰ بطوله، وفيه مسائل كثيرة في الديات وفي غيرها، وهي التي عَمِل بها السلف من وقت الخلفاء الراشدين إلىٰ زماننا هٰذا، والعلماء يأخذون بما جاء في هٰذا الكتاب حكمًا فيما اشتمل عليه. ومما اشتمل عليه ألا يمس القرآن إلا طاهر.

وهٰذا الحديث إذن مما تلقاه العلماء بالعمل وبالقبول، فالمنازعة في صحة هٰذه اللفظة بخصوصها من جهة الانقطاع والوجادة ليس بجيد؛ بل الحديث حسن والوجادة معروفة بخط من كتبها، ولها حكم الاتصال ولا إشكال في ذلك. وهٰذا هو ما عليه أئمة المحققين، والحديث أو هٰذا الكتاب كتاب عمرو بن حزم مشهور فيه مسائل كثيرة من مسائل العلم المهمة.

قال جل وعلا: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ يعني أن هٰذا القرآن تنزيل من الله جل وعلا. وفي ذكر الربوبية هنا ما يَلفِت النظر والتدبر إلىٰ أن بهٰذا القرآن تربية الناس وما يصلحون به، فالعالمون لا يصلحون إلا بهٰذا القرآن العظيم، وبه رحمتهم. وكلمة: ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ فيها فائدة وهو أن للرب عَزَّوَجَلَّ صفة العلو علو الذات، وعلو الصفات تبارك ربنا وتعالىٰ وتقدس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

سؤال: ما المقصود بالنجاسة في قوله ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ، إِنَّ المُسْلِمَ لاَ يَنْجُسُ»؟

الجواب: المقصود بالنجاسة هنا النجاسة العينية، أي إن المسلم إذا طرأت عليه النجاسة فإنها نجاسة حكمية تطهر، فإذا طرأت عليه نجاسة من أذىٰ في أحد السبيلين، أو علىٰ بعض بدنه فإنها تطهر بأنواع المطهرات، فالمسلم لا ينجس نجاسة عينية، بل هو مكرم ومطهر أن يكون بدنه نجسًا نجاسة عينية، لكن قد تحل عليه النجاسة فيغسل النجاسة.

وأما الحدث فليس نجاسة، الحدث حكم لا يدل علىٰ نقص الإنسان، أو نقص المسلم، ولا يدل علىٰ أنه حلت فيه نجاسة، فإذا أحدث بأي نوع من أنواع الحدث، فهٰذا حكم طارئ يُرفَع شرعًا بالطهارة، إما الطهارة الصغرىٰ، أو الطهارة الكبرىٰ بحسب الحال، وليس حكمًا عليه بالنجاسة؛ لذلك لا يصح يقول: الإنسان المحدث أنا نجس، فالمسلم لا ينجس، ولو كانت عليه نجاسة غير الجنابة فإنه ليس بنجس لأن المسلم طاهر مطهر.

سؤال: أين يوجد البيت المعمور؟

الجواب: البيت المعمور في السماء السابعة، البيت المعمور هو الذي أقسم الله جل وعلا به، وهٰذا واضح في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ

﴿٤﴾[الطور] فالبيت المعمور هٰذا المذكور في الآية في السماء السابعة، وهو الذي يسند إبراهيم عليه السلام ظهره إليه. وهو الذي يدخله كل يوم سبعين ألف ملك لا يرجعون إليه إلىٰ آخر الدهر. وهٰذا ثابت واضح في القرآن وفي السنة. أما بيت العزة ففي السماء الدنيا، وهٰذا لم يأت إلا في بعض الآثار والأحاديث التي ذكرناه بعضها.

الدرس الثاني عشر

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ قَالَ العَوْفِيّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ مُكَذِّبُونَ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ، وَأَبُو حَزْرَة، والسُّدِّيّ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ أَيْ: تُرِيدُونَ أَنْ تُمَالِئُوهُمْ فِيهِ وَتَرْكَنُوا إِلَيْهِمْ.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي: وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ بِمَعْنَىٰ شُكْرِكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ، أَيْ: تُكَذِّبُونَ بَدَلَ الشُّكْرِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمَا قَرَآهَا: «وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» كَمَا سَيَأْتِي.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ عَدِيٍّ: أَنَّ مِنْ لُغَةِ أَزْدِ شَنوءة: مَا رُزِقَ فُلَانٌ بِمَعْنَىٰ: مَا شَكَرَ فُلَانٌ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ عَبْدِ الأعلىٰ، عن أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾، يَقُولُ: شُكْرَكُمْ ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، تَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوء كَذَا وَكَذَا، بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا».

وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُخَوَّل بْنِ إِبْرَاهِيمَ النَّهْدِيِّ -وَابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّىٰ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُوسَىٰ، وَعَنْ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي بُكَيْر، ثَلَاثَتُهُمْ عَنْ إِسْرَائِيلَ، بِهِ مَرْفُوعًا. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مَنِيع، عَنْ حُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ -وَهُوَ الْمَرْوَزِيُّ[1]- بِهِ. وَقَالَ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ». وَقَدْ رَوَاهُ سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، وَلَمْ يَرْفَعْهُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا مُطِرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا أَصْبَحَ بَعْضُهُمْ كَافِرًا يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ».

وَهٰذا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ.

---

(١) المَرْوزي، نسبة إلىٰ مرو، ومرو بلدان: الْمَرُّوذِي نسبة إلىٰ مَرْو الرُّوذ، وهي بلدة كبيرة حسنة مبنية علىٰ وادي مرو، والأصل في النسب إليها المروالروذي ولكن تخفف أحيانا إلىٰ المروذي. وهناك بلدة أخرىٰ تسمىٰ مرو الشاه هجان، وهي التي يقال لمن يُنسَب إليها المروزي بالزاي للتفريق بينها وبين مرو الروذ، وكلا النسبتين موجودة في أصحاب الإمام أحمد المروذي والمروزي لكن أكثر من ينقل عنه المسائل المروذي، وفي أسانيد الأحاديث المروزي.

وَقَالَ مَالِكٌ فِي «الْمُوَطَّأِ»، عَنْ صَالِحِ بْنِ كيْسَان، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِّي أَنَّهُ قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صلاة الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي أَثَرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ » قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ».

أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، بِهِ.

وَقَالَ مُسْلِمٌ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ الْمُرَادِيُّ، وعَمْرو بْنُ سَوّاد، حَدَّثَنَا عَبْدِ اللهِ بْنِ وَهْبٍ، عَنْ عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ؛ أَنَّ أَبَا يُونُسَ حَدَّثه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ، يَنْزِلُ الْغَيْثُ، فَيَقُولُونَ: بِكَوْكَبِ كَذَا وَكَذَا».

تَفَرَّد بِهِ مُسْلِمٌ مِنْ هٰذا الْوَجْهِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَيُصْبِحُ القومَ بِالنِّعْمَةِ أَوْ يُمسِّيهم بِهَا فَيُصْبِحُ بِهَا قَوْمٌ كَافِرِينَ يَقُولُونَ: مُطِرنا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا».

قَالَ مُحَمَّدٌ -هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ-: فَذَكَرْتُ هٰذا الْحَدِيثَ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، فَقَالَ: وَنَحْنُ قَدْ سَمِعْنَا مِنْ أَبِي هُرَيرة، وَقَدْ أَخْبَرَنِي مَنْ شَهِدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ يَسْتَسْقِي، فَلَمَّا اسْتَسْقَىٰ الْتَفَتَ إِلَىٰ الْعَبَّاسِ فَقَالَ: يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، كَمْ بَقِيَ مِنْ نَوْءِ الثُّرَيَّا؟ فَقَالَ: الْعُلَمَاءُ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَعْتَرِضُ فِي الْأُفُقِ بَعْدَ سُقُوطِهَا سَبْعًا. قَالَ: فَمَا مَضَتْ سَابِعَةٌ حَتَّىٰ مُطِروا.

وَهٰذا مَحمول عَلَىٰ السُّؤَالِ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي أَجْرَىٰ اللهُ فِيهِ الْعَادَةَ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ، لَا أَنَّ ذَلِكَ النَّوْءَ يُؤَثِّرُ بِنَفْسِهِ فِي نُزُولِ الْمَطَرِ؛ فَإِنَّ هٰذا هُوَ الْمَنْهِيُّ عَنِ اعْتِقَادِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هٰذه الْأَحَادِيثِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فَاطِر:٢].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ -أَحْسَبُهُ أَوْ غَيْرِهِ-أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا -وَمُطِرُوا-يَقُولُ: مُطِرنا بِبَعْضِ عَشَانِين الْأَسَدِ. فَقَالَ: «كَذَبْتَ! بَلْ هُوَ رِزْقُ اللهِ».

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي أَبُو صَالِحٍ الصَّرَارِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو جَابِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْأَزْدِيُّ، حَدَّثَنَا

جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مُطِرَ قَوْمٌ مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ قَوْمٌ بِهَا كَافِرِينَ». ثُمَّ قَالَ: «﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾، يَقُولُ قَائِلٌ: مُطِرنا بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا».

وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «لَوْ قُحِطَ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ مُطِرُوا لَقَالُوا: مُطِرْنَا بِنَوْءِ المِجْدَحِ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ قَالَ: قَوْلُهُمْ فِي الْأَنْوَاءِ: مُطِرنا بِنَوْءِ كَذَا، وَبِنَوْءِ كَذَا، يَقُولُ: قُولُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَهُوَ رِزْقُهُ. وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا الْحَسَنُ فَكَانَ يَقُولُ: بِئْسَ مَا أَخَذَ قَوْمٌ لِأَنْفُسِهِمْ، لَمْ يُرْزَقُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا التَّكْذِيبَ. فَمَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ هٰذَا: وَتَجْعَلُونَ حَظَّكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ؛ وَلِهٰذَا قَالَ قَبْلَهُ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه. اللّٰهمَّ نسألك علمًا نافعًا وعملًا صالحًا وقلبًا خاشعًا ودعاءً مسموعًا، ربنا لا تكِلنا لأنفسنا طرفة عين فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا بك.

يقول الله جل وعلا في هٰذه السورة سورة الواقعة: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ لما ذكَر القرآنُ، والقرآن حَدِيثٌ، ذَكَر الله جل وعلا أنهم مدهنون في هٰذا القرآن، وأنهم إذا جاءهم رِزقُ الله جل وعلا كذّبوا بأنواع من التكذيب إما اللفظي وإما المعنوي.

والله جل وعلا وصف القرآن في غير موضع بأنه حديث، وأنه محدث. ومعنىٰ هٰذا أنه حديث العهد بربه جل وعلا، وأنه ليس بالقديم؛ لأن الله جل وعلا تكلم به فسمعه منه جبريل عليه السلام، فنزل به إلىٰ محمد عليه الصلاة والسلام.

فإذن وصف القرآن بأنه حديث يعني أنه جديد وليس بالقديم، وله معنًى آخر وهو أن القرآن حديث؛ لأن الناس فيما يتناقلون بينهم وفيما تتحرك بهم ألسنتهم، ويتناجون بالأحاديث، ويتناجون بالكلام الذي يسميه العرب حديثًا، لهٰذا يُسمَّىٰ كلُّ كلامٍ يقوله الإنسان لنفسه أو يبلغه غيرَه حديثًا؛ لأنه تحدث به.

والقرآن بهٰذا المعنىٰ حديث؛ لأن الإنسان يتلوه، ولأن أفضل ما تحدث به الناس فيما بينهم كتاب الله

جل وعلا ويتدارسونه فيما بينهم، هٰذا قول أهل السنة.

وأما المعتزلة فإنهم قالوا: إن الحديث هنا بمعنىٰ المحدَث كما في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الشعراء] وفي آية الأنبياء: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾[الأنبياء] فيجعلون (حديث) و(محدث) بمعنىٰ مخلوق من الإحداث وهو الإيجاد، وهٰذا تفسير باطل؛ لأن القرآن كلام الله جل وعلا كما في آية براءة: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾[التوبة: ٦].

ولأن كلمة محدث وحديث في اللغة تُحْمَل علىٰ ما ذكرنا سالفًا، وهو ما يتلىٰ ويُقرَأ ويُتحدَّث به، أو من الحديث الذي هو جديد العهد بربه جل وعلا من جهة تكلُّم الرَّحمٰن سبحانه به.

وقوله جل وعلا: ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ أي مُكذبون غير مصدقين به. وقد تقدَّم مرارًا في هٰذا التفسير أن الفاء التي تأتي بعد الهمز، وأيضًا الواو التي تأتي بعد الهمز عاطفة علىٰ جملة محذوفة، تُقدَّر بحسب السباق والسياق. وهنا مثلًا يمكن أن تقدر هٰذه الجملة بقولك: أيكون القرآن بهٰذه المنزلة العظيمة فبهٰذا الحديث أنتم مدهنون وتكذبون ولا تصدقون، إذا كان الله جل وعلا أقسم بالقرآن وبمواقعه علىٰ أحد التفسيرين وجعله في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تَبْيينًا لعظمته وعِظَم شأنه عند الله جل وعلا، أيكون القرآن بهٰذه المثابة وهٰذه المنزلة، فبهٰذا الحديث تكذبون ولا تصدقون.

والإشارة هنا في قوله: ﴿هٰذا الحَدِيثِ﴾ إشارة للقريب لأجل إحداث شأنه وتعظيمه، فكأنه لقربه من النفوس دائمًا ولقرب تلاوته ولقرب حروفه، وإيحاء الله جل وعلا لنبيه به قريب يشار إليه بهٰذا، وهٰذا من مقتضيات المعاني في البلاغة.

وأصل الإدهان في قوله: ﴿مُّدْهِنُونَ ﴾ هو أن يُعطِي المرءُ شيئًا خلاف ما يكون عليه؛ لأنهم إذا أرادوا أن يستحسنوا شيئًا طلوه بالدهن فصار ظاهره غير ما أخفاه. ولهٰذا قيل للمداهنة مداهنة لأن فيها هٰذا المعنىٰ، وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾[القلم] أي ودوا لو ذكرت لهم ما يرضيهم ظاهرًا فيعطونك ما يرضيك ظاهرًا، وهٰذا في الحقيقة نوع من الكذب لأنه خلاف ما يعتقده الإنسان فيما يقول، لهٰذا صار معنىٰ ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ أي مكذبين غير مصدقين.

قال جل وعلا بعدها: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ سبق أن ذكرنا في التفسير أن المقصود بالرزق إما هو المطر، وإما أن أنه الْحَظُّ من القرآن، وهٰذان قولان للسلف كما سمعت. والمشهور والأظهر هو

القول الأول وهو المطر؛ لكن من السلف من فسَّر الرزق بأنه الحظ من التنزيل وهو القرآن؛ لمناسبة ذلك لما سبق من الآيات، لكن التفسير الأول أولىٰ من جهتين:

الجهة الأولىٰ: ما جاء في الأحاديث التي ذكرت أنهم كانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وما جاء في الاستشهاد بهذه ألاية في هٰذا الموطن.

الجهة الثانية: أنه إذا فُسِّر الرزق هنا بالقرآن أو بالحظ من القرآن الذي أُعطُوه وما أُنعم الله عليهم به من القرآن، فإنه سيكون في هٰذه الآية نوع من إعادة المعنىٰ الذي جاء في الآية السابقة.

فإذا قلنا: إن معنىٰ قوله: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ يعني أفبهٰذا القرآن أنتم مكذبون فيكون ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ علىٰ هٰذا التفسير يكون معنىٰ الآية: وتجعلون حظكم من القرآن أنكم تكذبون، فيه هٰذا إعادة، والأصل عدم الإعادة؛ بل الأصل استئناف المعاني. وليس المعنىٰ هنا فيما تدخل الإعادة فيه في الإعادة التي لها فائدة دخولًا ظاهرًا، لهٰذا كان أكثر المفسرين علىٰ أن المراد بالرزق هنا المطر.

وحقيقة الرزق هو ما يرزق الله جل وعلا به عباده من النِّعم، سواء أن كانت النعمة مما يأكل أو يشرب أو يلبس أو من النعم الدينية، فإنها من الرزق الذي يسوقه الله جل وعلا؛ لكنه خُصَّ في الاستعمال أن الرزق أخص من النعمة فالرزق فيما يستعمله الإنسان في حياته وما يرزقه لأجل معاشه واستقامة دنياه.

وأما الأمور الدينية، فالاستعمال الخاص جعلها تدخل في النعم ونحوها، ولا تدخل في الرزق، فإذن ﴿ وَتَجْعَلُونَ ﴾ في قوله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ بمعنىٰ تصيرون لأنها نصبت مفعولين، المفعول الأول رزق والمفعول الثاني المصدر المنسبك من أَنَّ وجملتها؛ لأن أَنَّ المفتوحة الهمزة مع جملتها الاسم والخبر في تقدير مصدر.

وإذا تبين هٰذا فحقيقة مذهب المشركين أنهم كذَّبوا برزق الله جل وعلا الذي رزقهم إياه بالمطر، كما أنهم كذَّبوا بنعمة الله جل وعلا التي أنعم بها عليهم من المطر والقرآن والنعم المختلفة.

فأما في المطر فسبق حديث زيد بن خالد الجهني الذي فيه أن المشركين كانوا إذا أصابهم مطر قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا. ويريدون بالباء التي في (بنوء كذا وكذا) السببية وإلا فإنهم يعلمون أن الذي يُنزل المطر هو الله جل وعلا؛ ولكن يجعلون للنوء تأثيرًا في إنزاله، فالنوء في زعمهم هو الذي يُنزل المطر، فهو السبب في الإنزال.

ولكن هل هو السبب لأنه واسطة؟ أو لأن له تأثيرًا مستقلًّا؟ في هٰذا تردد عند الذين يعتقدون في

الكواكب، فمنهم من يعتقد فيها الاستقلال، وأن الكوكب يفيض ما يشاء، ومنهم من يعتقد فيها السببية، وأن له تأثيرًا سببيًا، وأن المسبب هو الله جل وعلا؛ لكن الكوكب هو الذي يؤثر في الإنزال، فإذا أراد الكوكب أن يمتنع امتنع؛ لهٰذا يجعلون الفضل للكوكب، وهٰذا لأجل اعتقادهم في أن للكواكب أرواحًا، ولهٰذا يصوّرون الكواكب والنجوم في أصنام وأوثان، ويقولون: إن روح الكوكب تَحُل عند السؤال، فُتُسأَل فتُعطِي والعياذ بالله، وهٰذا تارةً يعني الاستقلال، وتارةً يعني غير الاستقلال.

وإذا تبين ذلك فإن من قال: مطرنا بنوء كذا، يعني الاستقلال أو السببية التي هي بمعنىٰ أن الكوكب سبب يفيض عليهم من الخيرات، بدون إذن الله جل وعلا، فهٰذا كُفر أكبر بالله عَزَّوَجَلَّ.

وأما القسم الثاني: فهو أن يعتقد أن الكوكب سبب في الإنزال. وهٰذا كفرٌ أصغر وكفر نعمة؛ لأن الحقيقة أن الكواكب لا تأثير لها، لا تأثير لها لا استقلالًا كما هو ظاهر، فالله جل وعلا هو الذي يستقل بالأفعال، ولا تأثير لها أيضًا بالسَّببية فلم يجعل الله جل وعلا الكواكب أسبابًا لإفاضة الأمطار أو الخيرات أو طلوع الزَّرع، وإنما هي علامات للأوقات التي أجرىٰ الله جل وعلا سنّته فيها بإنزال الغيث وإخراج الزرع ونحو ذلك.

فمن سنته جل وعلا أنه جعل في وقت ظهور أنجم معينة تُسمَّىٰ الوسم أنه إذا نزل المطر أنبت الأرض بأنواع من النبات وخرجت الكمأة إلىٰ آخره. وهٰذا توقيت وليس ربطًا بالسببية، وكذلك إذا ظهرت الثُّريا يعدون كذا يومًا ثم يَنْزِل المطر، وإذا ظهر النجم الفلاني فإنه يُزرَع كذا، هٰذا من جهة التوقيت كما أنه يُقال: إذا زالت الشمس فإنه يصير كذا وكذا، وإذا غربت الشمس يصير كذا من جهة التوقيت لا من جهة أن لها تأثيرًا في ذلك.

فإذن إذا قال المسلم الموحِّد: إنه في وقت كذا، في وقت النجم الفلاني يكون كذا وكذا فهٰذا لا بأس به إذا كان بمعنىٰ الظرفية؛ يعني أن طلوع النجم وقت ودليل علىٰ ما أجرىٰ الله جل وعلا سنته عليه مثلما يُستدَل بسائر علامات التوقيت ونحو ذلك.

أما أنها تستقل والعياذ بالله فهٰذا كفر أكبر، أو أنها سبب من الأسباب الذي يفعل ويؤثر، فهٰذا أيضًا باطل كما سبق سالفًا.

قوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ حقيقة الكذب هو الإخبار بخلاف الواقع، سواء كان المخبر مُتعمِّدًا عالِم بأنه خلاف الواقع أو كان غيرَ عالم؛ ولذلك من أخبر بخلاف الواقع يقال له: كذبت، سواء أكان قاصدًا

عالِمًا بأنه غير الواقع، أو لم يكن عالمًا، هٰذا من جهة اللغة، فمثلًا فلان يقول: إن فلانًا يمدح فلانًا، فيقال: كذب لأنه أخبر بخلاف الواقع، ولو كان صادقًا علىٰ أنه مدحه، وهٰذا يصدق عليه من باب التنبيه قول ابن عمر لتلميذه وصاحبه نافع: لا تكذب عليَّ كما كان عكرمة يكذب علىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أي لا تُخبر عني خلاف الواقع، وهنا يكون قول القائل كذبت أي أخبرت بخلاف الواقع، ولا يعني أنه قصد الكذب وتعمده، فإذا قصد الكذب وتعمده فهٰذه كبيرة أو ذنب عظيم، وإذا لم يقصده ولم يتعمده فإنه معفو عن الإنسان فيه، إذا كان يظن شيئًا فلم يظهر هٰذا الشيء علىٰ ما يظن. وهٰذا يطلق عليه كذب في اللغة لأنه إخبار بخلاف الواقع.

إذن التكذيب هو رد الحق، ورد الخبر الموافق للواقع، وهؤلاء كذَّبوا بالقرآن وكذَّبوا برزق الله جل وعلا، وردوا الواقع وهو أن الله جل وعلا هو المنعم به، وهو المتفضل؛ ولذلك صار ذلك منهم تكذيبًا ولو لم يقولوا بنص العبارة: إن الله لم ينزل هٰذا المطر، لم يقولوا: إن الله لم ينعم علينا بهٰذا المطر، ولو سُئلوا: أأنعم الله عليكم بهٰذا المطر؟ ليقولون: نعم هو من نعمة الله، لكن هم نسبوه إلىٰ الكوكب، وقالوا: مُطِرنا بنوء كذا فأخبروا بخلاف الواقع، وردوا الواقع المتيقن وهم معتقدون لما أخبروا به فصاروا مكذبين لما أنزل الله جل وعلا عليهم من نعمة الرزق الذي هو الغيث والمطر.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ أَيِ: الرُّوحُ ﴿ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار كَمَا قَالَ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [الْقِيَامَةِ]؛ وَلِهٰذا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أَيْ: إِلَىٰ الْمُحْتَضَرِ وَمَا يُكابده مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أَيْ: بِمَلَائِكَتِنَا ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أَيْ: وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهُمْ. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الْأَنْعَامِ].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾: مَعْنَاهُ: فَهَلَّا تَرجعُون هٰذه النَّفْسَ الَّتِي قَدْ بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ إِلَىٰ مَكَانِهَا الْأَوَّلِ، وَمَقَرِّهَا فِي الْجَسَدِ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي مُحَاسَبِينَ. ورُوي عَنْ مُجَاهِدٍ، وعِكْرِمَة، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ، والسُّدِّيّ، وَأَبِي حَزْرَة، مِثْلَهُ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْر، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِي: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَنَّكُمْ تُدانون وَتُبْعَثُونَ وَتُجْزَوْنَ، فَرُدُّوا هٰذه النَّفْسَ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ غَيْرَ مُوقِنِينَ.

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَان: غَيْرَ مُعَذَّبِينَ مَقْهُورِينَ.

قال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لما ذكر في الآيات السالفة: القرآن وإنزاله وبيان شيء من عظمة الله جل وعلا، وإنعامه وفضله علىٰ عباده، ذكرنا لكم أن موضوع السورة هو البعث وانقسام الناس بعد الموت إلىٰ ثلاثة أقسام، فقد رجعت السورة إلىٰ هٰذا الموضوع وإلىٰ الحجة عليهم في أنهم عاجزون فيجب عليهم الاستسلام والانقياد للقرآن، وأنهم ليس لهم أن يكذبوا وليس لهم أن يُدهِنوا، وليس لهم ألا يصدقوا بل يجب عليهم لضعفهم وعجزهم، ولخطورة الممر وخطورة ما سيكون عليه الأمر من انقسام الناس وأنهم ضعفاء مقهورون يعلموا ذلك من أنفسهم، فيجب عليهم إذن أن يصدقوا بالقرآن وأن يصدقوا

النبي ﷺ وأن ينسبوا الرزق إلىٰ الله جل وعلا وحده دون ما سواه.

فلهٰذا قال جل وعلا هنا: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ و(الحلقوم) اسم للحلق، المكان المعروف من الرقبة، و(إذا) بمعنىٰ حين. و(لولا) هنا بمعنىٰ هلاَّ وفيها التحضيض والدعوة إلىٰ أن يفعلوا، أي فهلاَّ حين بلغت الروحُ الحلقومَ، بلغت الروحُ الحَلْقَ فأصبحت تتردد في قرب مخرجها من الفم والأنف ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ والحال أنكم حين خروج هٰذه الروح وقرب انفصالها عن البدن تنظرون إلىٰ هٰذا الميت، تنظرون إلىٰ هٰذا الذي ينزع إلىٰ هٰذا المحتضر فهل تستطيعون إرجاع هٰذه الروح؟ هل تستطيعون أن تتدخلوا ؟

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي إن الملائكة تقرُب من المحتضر؛ حتىٰ تتسابق إلىٰ أخذ روحه إن كان مؤمنًا أو كان كافرًا. فأما المؤمن فتأخذه ملائكة الرحمة كما جاء في حديث البراء بن عازب الطويل المعروف. وأما الكافر فتأخذه ملائكة العذاب.. إلىٰ آخره.

فإذن ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ هٰذا قرب الملائكة. وفي القرآن آية أخرىٰ في سورة ق في قوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾[ق] والقرب نوعان:

- قربٌ عام
- وقربٌ خاص.

أما القرب العام، وهو أنه جل وعلا يقرب من كل عباده أو من جميع أصناف عباده فهٰذا ليس من صفات الله جل وعلا، إنما هو قربٌ لملائكة الرحمن جل وعلا، كما قال ذلك هنا ابن كثير هنا ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أي قرب الملائكة. وكذلك في قوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ فهو قرب الملائكة أيضا.

وأما القرب الخاص فهو قرب الله عَزَّ وَجَلَّ من الداعي كما في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[الأعراف]، وقربه تعالىٰ من عباده في آخر الليل، ودنوه جل وعلا منهم في يوم عرفة، ونحو ذلك من القرب الخاص. وهو جل وعلا عالٍ علىٰ خلقه مستوٍ علىٰ عرشه، ويقرب من خاصة عباده علىٰ ما يليق بجلاله جل وعلا وبعظمته.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ لأن بينهم وبين الميت مسافة؛ ولكن الملائكة أقرب وأقرب؛ لأنهم عند مخرج النَّفَس يريدون أن يتناولوا هٰذه النَّفس.

ثم قال جل وعلا بعدها: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ فُسِّرت ﴿مَدِينِينَ ﴾ بعدة تفاسير، منها أنها بمعنىٰ محاسبين، أو بمعنىٰ غير مصدّقين، غير موقنين أو ما شابه ذلك، أو غير معذَّبين ومقهورين ونحو ذلك.

وترجع كل هٰذه التفاسير في الواقع إلىٰ معنًىٰ واحد للإدانة بضربٍ من التوسع، فأصل مدينين من الدِّين، والدين يكون بمعنىٰ الجزاء، فـ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي مالك يوم الجزاء، وكما تدين تدان أي كما تجازِي تُجازَىٰ.

وتأتي (مدينين) أيضًا بمعنىٰ دان بالشيء إذا اعتقده والتزمه، وأدانه إذا رده، فيكون (مدينين) من دان فيصير تفسير من فسَّرها غير مصدقين يعني غير معتقدين لذلك. وتأتي بقية التفاسير أيضًا علىٰ توجيه من اللغة.

والمقصود من ذلك ما نبهت إليه مرارًا في في التفسير أن السلف إذا اختلفوا في التفسير فيكون ذلك لمأخذٍ إما من اللغة وإما من السياق وإما لسبب النزول، هٰذا ما يجعلهم يختلفون في التفسير، وإما لأن السنة جاءت ببعض التفاسير دون بعض، فتدل علىٰ بعض الأقوال دون بعض. وإلا في الغالب ما تكون أقول السلف متقاربة، وإنما هو اختلاف إيضاح للعبارة وهو الذي يسميه ابن تيمية وغيره اختلاف تنوع أي اختلاف تنوع في العبارات لا اختلاف أصلي أو اختلاف تضاد.

قال: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ إن استطعتم أن ترجعوا تلك الروح فارجعوها فإنكم لن تستطيعوا، وإذا كنتم بهٰذه الصفة من العجز والقهر والذل ونحو ذلك، فيجب عليكم أن توقنوا بالله جل وعلا، وبكتابه وبما جاء به رسوله ﷺ، وأن تعدوا العدة لما بعد خروج الروح لأنكم ولا شك يومًا ستخرج أرواحكم، ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ إلىٰ آخر الآيات.

لهٰذا تنتبه إلىٰ أن من طريقة الحجة في كتاب الله جل وعلا أنه ينظر إلىٰ طريقة التفكير التي يفكر بها من يُردُّ عليه أو من يحاجج، أي كيف يفكر؟ ثم يأتي فإذا كان يفكر من جهة تعظيم نفسه ورفعها، فإنه يبين له فيها الصور التي تدل علىٰ أنه مقهور ذليل لا يمكن أن يفعل شيئًا، ولا شك حينئذ إذا حدث له ذلة وعلم ذلك وتيقنه في نفسه فإنه ينفتح عليه باب من أبواب الخير؛ لأن الكبر من جند الشيطان، بل الكبر نفث الشيطان ونفخه في الإنسان، ولهٰذا تتنوع الحجاج مع المشركين وكيفية التأثير عليهم بأنواع المؤثرات في كتاب الله العظيم. وهٰذا مما ينبغي أن يستفيد منه العلماء وطلبة العلم والدعاة إلىٰ الله جل وعلا في طريقة القرآن في رد مقال أو حال المعرضين عن دين الله جل وعلا.

الدرس الثالث عشر

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

هٰذه الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ احْتِضَارِهِمْ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، أَوْ يَكُونَ مِمَّنْ دُونَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بالحقّ الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَىٰ، الْجَاهِلِينَ بِأَمْرِ اللهِ؛ وَلِهٰذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ أَيِ: الْمُحْتَضَرُ، ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وَهُمُ الَّذِينَ فَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضَ الْمُبَاحَاتِ، ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أَيْ: فَلَهُمْ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ، وَتُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَقُولُ: «أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، اخْرُجِي إِلَىٰ رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ».

قَالَ عَلِيُّ بْنُ طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَرَوْحٌ﴾ يَقُولُ: راحة وريحان، يقول: مستراحة.

وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ الرَّوْحَ: الِاسْتِرَاحَةُ.

وَقَالَ أَبُو حَزْرَةَ: الرَّاحَةُ مِنَ الدُّنْيَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالسُّدِّيُّ: الرَّوْحُ: الْفَرَحُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾: جَنَّةٌ وَرَخَاءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: فَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَرَيْحَانٌ﴾: وَرِزْقٌ.

وَكُلُّ هٰذه الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ صَحِيحَةٌ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ مُقَرَّبًا حَصَلَ لَهُ جميعُ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّاحَةِ وَالِاسْتِرَاحَةِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: لَا يُفَارِقُ أَحَدٌ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ حَتَّىٰ يُؤْتَىٰ بِغُصْنٍ مِنْ رَيْحَانِ الْجَنَّةِ، فَيُقْبَضَ رُوحُهُ فِيهِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَا يَمُوتُ أحدٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ يَعْلَمَ: أَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هُوَ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَحَادِيثَ الِاحْتِضَارِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٧]، وَلَوْ كُتِبَتْ هَاهُنَا لَكَانَ حَسَنًا! وَمِنْ جُمْلَتِهَا حَدِيثُ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: «يَقُولُ اللهُ لِمَلَكِ الْمَوْتِ: انْطَلِقْ إِلَىٰ فُلَانٍ فَأْتِنِي بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ جَرَّبْتُهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أُحِبُّ، ائْتِنِي بِهِ فَلَأُرِيحَنَّهُ. قَالَ: فَيَنْطَلِقُ إِلَيْهِ مَلَكُ الْمَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مَعَهُمْ أَكْفَانٌ وحَنُوط مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَعَهُمْ ضَبَائِر الرَّيْحَانِ، أَصْلُ الرَّيْحَانَةِ وَاحِدٌ وَفِي رَأْسِهَا

عِشْرُونَ لَوْنًا، لِكُلِّ لَوْنٍ مِنْهَا رِيحٌ سِوَىٰ رِيحِ صَاحِبِهِ، وَمَعَهُمُ الْحَرِيرُ الْأَبْيَضُ فِيهِ الْمِسْكُ».

وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ بِطُولِهِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ تَتَعَلَّقُ بِهٰذه الْآيَةِ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا هَارُونُ، عَنْ بُدَيل بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيق، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ بِرَفْعِ الرَّاءِ.(١)

وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ هَارُونَ -وَهُوَ ابْنُ مُوسَىٰ الْأَعْوَرُ- بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ.

وَهٰذه الْقِرَاءَةُ هِيَ قِرَاءَةُ يَعْقُوبَ وَحْدَهُ، وَخَالَفَهُ الْبَاقُونَ فقرؤوا: ﴿فَرَوْحٌ﴾ بفتح الراء.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَة، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَسْوَدِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَوْفَلٍ: أَنَّهُ سَمِعَ دُرَّةَ بِنْتَ مُعَاذٍ تُحَدِّثُ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ: أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَنَتَزَاوَرُ إِذَا مُتْنَا وَيَرَىٰ بَعْضُنَا بَعْضًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَكُونُ النَسمُ طَيْرًا يَعْلُقُ بِالشَّجَرِ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَخَلَتْ كُلُّ نَفْسٍ فِي جَسَدِهَا».

هٰذا الْحَدِيثُ فِيهِ بِشَارَةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ، وَمَعْنَىٰ «يَعْلُقُ»: يَأْكُلُ، وَيَشْهَدُ لَهُ بِالصِّحَّةِ أَيْضًا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ، عَنِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا نَسَمة الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجرِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ». وَهٰذا إِسْنَادٌ عَظِيمٌ، وَمَتْنٌ قَوِيمٌ.

وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ» الْحَدِيثَ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ قَالَ: كَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُ فِيهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَىٰ(٢): رَأَيْتُ شَيْخًا أَبْيَضَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ عَلَىٰ حِمَارٍ، وَهُوَ يَتْبَعُ جِنَازَةً، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثَنِي فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ». قَالَ: فَأَكَبَّ الْقَوْمُ يَبْكُونَ فَقَالَ: «مَا يُبكيكم؟» فَقَالُوا: إِنَّا نَكْرَهُ الْمَوْتَ. قَالَ: «لَيْسَ

---

(١) هٰذا اصطلاح، وإلا فالمقصود بضم الراء، أما الرفع فهو وضف لأواخر الكلم.

(٢) من العلماء الكبار، من علماء المدينة الفقهاء المعتمدين، وولدخ محمد أقل منه؛ صدوق.

ذَاكَ، وَلَكِنَّهُ إِذَا حُضِر ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، فَإِذَا بُشِّر بِذَلِكَ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ لِلِقَائِهِ أَحَبُّ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ فَإِذَا بُشِّر بِذَلِكَ كَرِهَ لِقَاءَ الله، والله للقاءه أَكْرَهُ.

هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا شَاهِدٌ لِمَعْنَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ أَيْ: وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُحْتَضَرُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، ﴿ف سَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أَيْ: تُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ، تَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: سَلَامٌ لَكَ، أَيْ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، أَنْتَ إِلَىٰ سَلَامَةٍ، أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: سَلِمَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وسَلَّمت عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللهِ. كَمَا قَالَ عِكْرِمَة تُسَلِّمُ عَلَيْهِ الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين.

وَهٰذا مَعْنًى حَسَنٌ وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فُصِّلَتْ].

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: ﴿سَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أَيْ: مُسلم لَكَ أَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَأُلْغِيَتْ (أَنَّ) وَهُوَ: مَعْنَاهَا، كَمَا تَقُولُ: أَنْتَ مُصَدق مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ. إِذَا كَانَ قَدْ قَالَ: إِنِّي مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ. وَقَدْ يَكُونُ كَالدُّعَاءِ لَهُ، كَقَوْلِكَ: سَقْيًا لَكَ مِنَ الرِّجَالِ، إِنْ رَفَعْتَ (السَّلَامَ) فَهُوَ مِنَ الدُّعَاءِ.

وَقَدْ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَكَذَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَالَ إِلَيْهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أَيْ: وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُحْتَضَرُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ، الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَىٰ، ﴿فَنُزُلٌ﴾ أَيْ: فَضِيَافَةٌ ﴿مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ وَهُوَ الْمُذَابُ الَّذِي يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أَيْ: وَتَقْرِيرٌ لَهُ فِي النَّارِ الَّتِي تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ أَيْ: إِنَّ هٰذا الْخَبَرَ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَلَا مَحِيدَ لِأَحَدٍ عَنْهُ.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ قَالَ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنِ أَيُّوبَ الْغَافِقِيِّ، حَدَّثَنِي عَمِّي إِيَاسُ بْنُ عَامِرٍ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»

وَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الْأَعْلَىٰ]، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ».

وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَيُّوبَ، بِهِ.

وَقَالَ رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ: حَدَّثَنَا حَجَّاجُ الصَّوافُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ».

هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ رَوْحٍ، وَرَوَاهُ هُوَ وَالنَّسَائِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ به، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزبير.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي آخِرِ كِتَابِهِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِشْكَابَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا عُمارة بْنِ الْقَعْقَاعِ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيرة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ».

وَرَوَاهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ، مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بن فضيل، بإسناده، مثله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا علمًا وعملًا يا أرحم الراحمين، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدمنا وانصرنا علىٰ القوم الكافرين.

أما بعد؛ يقول الله جل وعلا في آخر هٰذه السورة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ هٰذا في بيان حال المحتضر الذي تكاد روحه تفارق بدنه في أنه علىٰ أحد هٰذه الأقسام الثلاثة التي ذكرها الله جل وعلا في أول السورة؛ فإن حقيقة الانقسام في أصله يكون عند مفارقة الروح للبدن، ثم يكون ظهور ذلك يوم القيامة في بيان المراتب العظيمة التي يتفرق إليها الناس.

ففي أول السورة ذكر الله جل وعلا انقسام الناس يوم القيامة، يوم الجزاء إلىٰ سابقين وهم المقربون، وإلىٰ أصحاب اليمين، وإلىٰ أصحاب الشمال، وهكذا ذكر هنا يظهر هٰذا التقسيم، وتظهر هٰذه الفئات عند مفارقة الروح للجسد، فمنذ تلك اللحظة يكون إما من المقربين، وإما من أصحاب اليمين، وإما من المكذبين الضالين، وهم أهل الشمال؛ فقال جل وعلا: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨﴾ (أما) هٰذه للتقسيم تأتي

إذا كان هناك تقسيم بعدها كقوله جل وعلا مثلًا في سورة الضحىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ ونحوها من الآيات.

قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي إن كان مآله من المقربين إلىٰ ربهم جل وعلا، فكما كان الله جل وعلا في هٰذه الدنيا قريبًا من قلوبهم قد عَمَرت قلوبَهم محبتُه جل وعلا، وراقبوه وأتوا بالفرائض، وانتهوا عن المحرمات وسابقوا إلىٰ الطاعات، وتركوا طائفة من المباحات فإنه يكون جزاؤهم أنهم من المقربين، فقَرُبوا وقت الاختيار، ثم قُرِّبوا وقت الجزاء فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ إلىٰ الله جل وعلا: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ منذ مفارقة الرُّوح للجسد، فإنه يكون في رَوْح في استراحة ورحمة.

والرَّوح والرُّوح كما ذُكِر في تفاسير السلف تأتي بمعنىٰ الراحة والاستراحة، وقد جاء في بعض الأحاديث: «إني لأجد رُوح الرَّحمٰن من قبل اليمن»، وفي لفظ «رَوح الرَّحمٰن من قبل اليمن»، يعني نعمة الله جل وعلا بالإراحة والاستراحة تأتي من قبل اليمن لما أتىٰ أهل اليمن مسلمين مؤمنين، وهنا قال: ﴿فَرَوْحٌ﴾ يعني إن هٰذا المقرب في راحة عظيمة، واستراحة من العناء الذي كان يكابده في الدنيا.

﴿وَرَيْحَانٌ﴾ الريحان هنا إما أن يكون جِنسًا للنعيم؛ لأن الريحان عند العرب من النبات الطيب الذي لا يُردُّ، نبات طيب الرائحة معروف يسمىٰ الريحان أو الريحان الفارسي، تهتم له العرب وتَعُدُّ إنباته وشمه من الطيبات؛ فيكون عنىٰ بقوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أن الريحان هنا جنس النعيم، وجنس التلذذ الذي يكون في الجنة.

أو أن يكون الريحان يعني جنس النعيم والتلذذ والرزق إلىٰ آخره، أو يكون الريحان هنا ما جاء في الحديث إن صح وهو أن الرُّوح تُقبض في ريحان وتسلك في ريحان حتىٰ تدخل الجنة طيبة مطيبة.

ثم عمَّ بعد ذلك فقال: ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وحقيقة المراد بالجنة هنا الجنة التي أعدها الله جل وعلا لأوليائه دار الجزاء، وهي مخلوقة موجودة الآن خلقها الله جل وعلا للبقاء لا للفناء. وهي مآلُ وسُكْنىٰ مَن رحمهم الله جل وعلا من أوليائه.

وكون هٰذا المقرَّب في جنة النعيم يقتضي أنه حي وأن روحه حية كما جاء في الحديث المسلسل بالأئمة الذي رواه الإمام أحمد عن الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري إلىٰ آخره: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»، وفي الحديث الآخر من

أرواح الشهداء: فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ تِلْكَ الْقَنَادِيلِ».

وهٰذان الحديثان يدلان علىٰ أن كل مسلم فارقت روحه بدنه وكان ممن رحمهم الله جل وعلا إما بموت معتاد أو بشهادة فإن روحه في الجنة، فقوله: «نسمة المؤمن طائر يعلق من ثمار الجنة»، يعني نفس الروح تكون طائرة، وأما الشهيد فروحه تكون في جوف طير خضر وهٰذا فرق، كونها في جوف الطير هٰذا أبلغ في النعيم من أن تكون هي طائر يذهب ويجيء؛ بل هي في جوف طير، وهٰذا الطير مسخر من عند الله جل وعلا لتنعيم تلك الروح؛ روح الشهيد.

لهٰذا قالت طائفة من أهل العلم إن قوله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[آل عمران] ليس خاصًا بالشهيد، ولكن كل من مات علىٰ الإسلام فإنه يكون حيًّا يُرزَق في الجنة، وإنما خُصَّ الشهيد بذلك لأمرين:

أولًا: لظنهم أنه مات وترك بعض عمره كما يظن أهل الجاهلية، ولهٰذا قال الله جل وعلا في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[البقرة]، وهٰذا في الواقع للشهيد ولغيره.

وثانيا: أن للشهيد مزيد فضلٍ ونعيم علىٰ غيره، لذلك قال جل وعلا في الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ففيهم ولهم مزيد اختصاص وفضل؛ لأنه قال: ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فالمتولي لرزقهم وإنعامهم هو ربهم جل وعلا الذي قُتِلُوا في سبيله.

وهٰذا ظاهر في أن هٰذه الآيات من سورة الواقعة قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ أنه يكون في الجنة وروحه منعمة كما في الحديث الذي سبق ذكره «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ» لأنها تكون في الجنة.

فإذن مسألة كون الشهيد بخصوصه حيًّا، وأن غيره ليس بحيٍّ، ليس الأمر هكذا بل كل مسلم موحِّد يكون حيًّا في نعيم، لكن الشهيد له مزيد اختصاص بأجر وثواب، ونوع حياة مزيدة؛ ولكن الاشتراك حاصل بين هٰذا وهٰذا في أصل الحياة، فلا يُقال: الشهيد حي في الجنة وغيره ليس بحي، أو أن روحه موجودة تتنعم في الجنة وبقية الناس لا يتنعمون، ليس الأمر كذلك وهٰذا بيِّنٌ ظاهر في دلالة النصوص،

لكن قد يظهر من الآيات والنصوص تخصيص الشهيد بمزيد فضل في الحياة الآخرة، وإن كان بعض الناس يظن أن غيره ليس كذلك، وهٰذا ليس بمراد لا في النصوص وليس له ما يدل عليه.

بل كما قال جل وعلا هنا: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ أي منذ مفارقة الروح للبدن فإنه يكون في نعيم، لهٰذا إذا وضع في قبره، وأتت ملائكة الرحمن لسؤاله وهما منكر والنكير فتعود روحه من مكانها الذي تتنعم فيه ليحدث هنا التقاء الروح بالجسد للسؤال، ثم بعد ذلك للنعيم الذي يكون للروح والجسد معًا، أو العذاب والعياذ بالله الذي يكون للروح والبدن معًا.

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ حقيقة النعيم في اللغة تمام الإنعام بأصنافه، فإفاضة ما يلائم البدن والروح يقال له تنعمٌ ونعيم، وسلب ما به تنعم الروح والبدن وإفاضة ضده يقال له: عذاب. فالنعيم اسم يجمع كل نوع من أنواع التنعم قلَّ أو كَثُر. والعذاب اسم يجمع كل نوع من أنواع سلب التنعم قلَّ أو كَثُر.

ولهٰذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وعمر لما أكلا فشبعا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هٰذا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وهو الأكل والشبع. وفي حديث العذاب قال ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ».

فحقيقة النعيم إذن إفاضة ما تستلذ له أو ما تتنعم به الروح أو البدن أو هما معًا، والعذاب سلب هٰذا وإفاضة ضده قَلَّ أو كَثُر. لهٰذا لا يصح أن يُقال: إن كل عذاب عقوبة، وأن كل نعيم رحمة، بل قد يكون هٰذا وقد لا يكون، قد لا يكون العذاب ليس عقوبة ولكنه سلب في واقع الحال أو لمقتضىٰ مثل كون السفر قطعة من العذاب، ومثله «إِنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» ونحو ذلك.

ويفيدك في مثل هٰذه المسائل أن تفهم أصول موارد الكلمة في لسان العرب أي في لغة العرب؛ لأن المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام إنما تكلم بلسان العرب وكذلك كتاب الله جل وعلا إنما هو باللسان العربي: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الزخرف]. ولهٰذا قصر التفسير علىٰ بعض معاني اللفظ دون غيره بدون مرجح أو مخصص فيه قصور. في قوله جل وعلا: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ ما يدل علىٰ إفاضة أنواع التنعم في الدار الآخرة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ هؤلاء هم القسم الثاني: وهم المقتصدون عند طائفة من العلماء، أصحاب اليمين هم المقتصدون الذين اجتنبوا المحرمات وأتوا

بالواجبات، وأتوا ببعض المستحبات، وذكرنا في أول الكلام أن المُقرَّب من ترك بعض المباحات وترك المحرمات والمكروهات، فالمقربون لا يأتون كل ما أباح الله جل وعلا، بل يتركون بعض المباحات لأجل الترفع عن إذهاب الطيبات خوفًا من قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فبعض المباحات تترك رعاية لكمال النفس ورعاية لتمام التعبد كما هو معروف؛ ولهٰذا قال الله جل وعلا لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾[طه].

ومن اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية المعروفة أنه يقول إن التوسع في المباحات محرم؛ لدلالة هٰذه الآية، أي إنه لا يجوز أن يأتي المسلم كل مباح ويقول هٰذا مباح؛ لدلالة الآية السابقة. فلا يجوز للمسلم عند ابن تيمية أن يتلذذ بكل ما تصل إليه يده من المباحات ويمد عينيه إليه وذهب نفسه إليه ولا يحرم نفسه من شيء.

والقول الثاني: هو قول جمهور العلماء وهو الصحيح أن الأمر ليس كذلك، بل هو خلاف الأَوْلىٰ، ولذلك وصف ابن كثير المقربين بأنهم وهم الكمل وهم السابقون بأنهم يتركون بعض المباحات رعاية للكمال. ولكن لو أتىٰ الإنسان أكثر المباحات فليس عليه شيء؛ لأن هٰذا قد أباحه الله جل وعلا، سواء إن كان من مباحات النظر والاستماع أم أم من مباحات التلذذ باللسان بالكلام أم من مباحات الأكل والطعام والشراب أم من مباحات البدن، واللباس إلىٰ آخره.

قال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ وسُمِّي أصحاب اليمين بذلك لاختصاصهم بأخذ كتابهم باليمين، ولأنهم يكونون يوم القيامة علىٰ اليمين، لهٰذا قال في وصفهم: أصحاب اليمين عطفًا علىٰ ما ذكره في أول السورة.

﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ ليس المعنىٰ المراد أن أصحاب اليمين يُسَلِّمون، ليس هٰذا هو المراد، لأنهم يكون مع الملائكة، الملائكة تأخذ أرواحهم، فيقول جل وعلا: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ أي المحتضر ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أي سلام لك أيها المحتضر من الملائكة، ثم قال ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أي إنهم يُبشرون بأنهم من أصحاب اليمين.

فحقيقة التركيب أن الملائكة تقول له: فسلام لك -باللفظ- من أصحاب اليمين، فهٰذا بَيِّنٌ، ويعني

أن هٰذا المحتضر من أصحاب اليمين، وهٰذا يبين لنا نزول مرتبتهم عن مرتبة المقربين من جهتين:

أما الجهة الأولىٰ: فإن المقرب وإن كان من أصحاب اليمين، أي إنه يأخذ كتابه باليمين وأنه ليس من أصحاب الشمال، لكنه فُضِّل بمزيد قُرْب، وأصحاب اليمين مع أن لهم أصل التقريب، لكن ليسوا كأولئك فأولئك خصوا بالتقريب.

والجهة الثانية: أن الملائكة لا تبادر المقربين بالكلام، وإنما بما يحصل لهم به الاطمئنان بالدخول في النعيم من أول لحظة. وأما أصحاب اليمين فإنه يقال لهم: سلام لك أي يوعدون بالسلام، ثم يوعدون بأنهم من أصحاب اليمين، وهٰذا يدل علىٰ نزول الرتبة من هاتين الجهتين.

فإذن في المقام الأول: أوتوا بالفعل الذي هو النعيم، والروح الاستراحة الفورية والريحان وهو جنس التنعم والطيبات وجنة النعيم، والآخرون يقال لهم: سلامٌ، أي لن يصيبكم إلا السلام. وسلام اسم مصدر سَلَّمَ يسلِّمُ تسليمًا، هٰذا هو المصدر واسم المصدر وسلام اسم التسليم الذي يجمع معاني السلام. ولهٰذا اختير لفظ السلام في إلقاء التحية؛ لأن فيه جميع معاني السلامة في الأقوال والأعمال وفي الروح والبدن والوعد بها إلىٰ آخره.

فإذن تقول الملائكة لصاحب اليمينك سلام لك، ثم تقول له: إنك من أصحاب اليمين وعدًا حقًّا.

ثم قال جل وعلا بعدها في بيان الفئة الثالثة: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ هٰذه هي الفئة الثالثة وهم أصحاب الشمال الذين وصفهم الله جل وعلا في السورة بقوله: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

فوصفهم هناك بهاتين الصفتين، ووصفهم هنا بوصفين فقال: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾. وهٰذان الوصفان مكذب وضال وصفان ملازمان لكل كافر، فإن الكفر يجمع التكذيب والضلال فما من كافر وُصِف بالكفر إلا وهو ضال مكذب، فلا يمكن أن يكون إنسان غير مكذبٍ ويكون كافرًا، قد يكون مكذبًا ولا يكون ضالًا.

والمقصود بالتكذيب هنا تكذيب النبي عليه الصلاة والسلام أو الذهاب علىٰ وجه من الوجوه يغيب به الحق. ولهٰذا قيل للمخطئ: ضال، وللناسي ضال، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ

إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قيل للناسية: ضالة لأنها ذهبت عن إدراك الحق ذهبت نسيانًا أو غير ذلك. كذلك قال الله جل وعلا في الميت: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠﴾ [السجدة] أي غِبْنَا عن وجه الحقيقة وعن الظهور بالموت وتَفرُّق البدن.

ويوصف من لا يُدرِك الهدىٰ بأنه ضال؛ لأنه غاب عن أعظم إدراك، وعن أعظم ما يستحق البحث عن حقيقته والالتزام به، ذلك فهٰذا أعظم الضلال؛ لهٰذا قال جل وعلا: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ ﴾ [إبراهيم] أي هٰذا هو أبعد وأشنع أنواع الضلال وهو دعاء غير الله جل وعلا، والكفر ونحو ذلك.

فإذن فالمقصود بـ ﴿ٱلضَّآلِّينَ ٩٢﴾ هنا الضلال الكفري. والضلال أقسام ودرجات، فيمكن أن يضل المسلم في بعض شأنه، ثم يهتدي ويكمل أمره، وكذلك يمكن أن يكون الضلال في اللفظ، أي في النسيان والغفلة دون مقارفة الذنب، يعني من حيث اللغة.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣﴾ والنُّزُّل هو مكان النزول، أي إن هٰذه الرُّوح المفارقة ستنزل وتحل وتتبوّأ مكانًا من حميم، ثم بعدها تصلية جحيم والعياذ بالله. وقد سبق تفسير الحميم. ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾ التصلية من الصَّلْي وهو لَفْح النار ولهيب ألسنة جهنم والعياذ بالله.

ثم قال جل وعلا بعدها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾ إن هٰذا الذي تقدم من وصف انقسام الناس؛ بل من أول السورة من ذكر القيامة وما يحدث فيها، ثم انقسام الناس، ثم الأدلة علىٰ وحدانية الله جل وعلا، ثم ذكر تُنزُّل القرآن، ثم انقسام الناس في القرآن، ثم في الاحتضار كل ما مر في هٰذه السورة قال جل وعلا مُعقبًا عليه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥﴾.

الإشارة بـ ﴿هَٰذَا﴾ إلىٰ ما ذُكِر في السورة وهي إشارة للقريب، ففيها إشارة للقرب اللفظي لأن كل ذلك ذُكِر قريبًا، وفيها أيضًا القرب المعنوي، وهو قربه من العقول السليمة والفطر المستقيمة المدرِكة للحق، فهٰذا القريب الذي وُصِف وقَرُب منكم تلاوته، وقرب منكم آياته، قربت منكم ألفاظه فيما ذُكِر أيضًا هٰذا قريبٌ من إدراك العقول الصحيحة بالقرب المعنوي.

وإن في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ﴾ مؤكدة، واللام يقال لها: لام الابتداء أو اللام المزحلقة، وهي أيضًا مؤكدة وهنا اجتمع نوعان من التأكيد: (إن) الحرف المؤكد، واللام وهي حرف مؤكد آخر، ولا يأتيان معًا إلا إذا كان المخاطب منكِرًا، أو من هو في منزلة المنكِر فِعلا، وهؤلاء المشركون كانوا منكرين علىٰ

الحقيقة؛ لذلك احتاج الأمر إلىٰ لفت أنظارهم والتشديد عليهم كما يعلمه العرب من اللسان.

وليس قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ كما لو قال: هٰذا هو حق اليقين، فهٰذا هو حق اليقين هو مجرد ابتداء وخبر وليس فيه أي تأكيد، ويمكن أن يقال ذلك للغافل عن المعلومة، أو من يجهلها فعندما سيخبر بها فسيزول جهله.

أما إذا كان المخاطَب منكِرًا وتريد أن توقظه من إنكاره، أو كان مُنزَّلًا منزلة المنكر لغفلته وإعراضه فإنه يؤتىٰ بالمؤكدات بإن واللام. وأصل اللام هي لام الابتداء أي الأصل أن تتصل بالمبتدأ، وقد تتأخر أو تزحلق لتتصل بالخبر ليؤكد الكلام، بها أي تؤكد بها الجملة الخبرية، فتقول لأنت الرجل أو لمحمدٌ هو الرجل، لهٰذا هو الحق، ثم أتت إن وهي مؤكدة فأخرت اللام لتتصل بالخبر، فالأصل في اللام أن تتقدم، لكن إكرامًا لإنَّ أُبقي لها الصدارة وأُخِرَت اللام فسميت مؤخرة أو مزحلقة قال فجاءت الجملة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

وحق اليقين نوع، وعين اليقين نوع، وعلم اليقين نوع وأعلىٰ ذلك وأرفعه هو حق اليقين. فإذا كان اليقين معروف المعنىٰ فإن حقه أرفع من عينه وأرفع من العلم به. والفرق بينها يسير التفسير كما هو معروف لأكثركم، في أن الخبر إذا تُيقِّن به صار عِلمًا، أي إن أول درجات تَيقُّن الخبر هو العلم به فيقال: عِلْم اليقين، ثم إذا رُؤِيَّ بالعين أو أُحِس بحاسة من الحواس دون مباشرة له ودخولٍ فيه يقال له: عين اليقين، ثم إذا دُخِل فيه صار إدراكه بالروح والجسد، بجميع الحواس صار حق اليقين.

ومثَّل له ابن القيم في «مدارج السالكين» بمن أُخْبِر من ثقة بأن بعد هٰذا الجبل ماءً، فصار لديه يقين بذلك؛ لأن هٰذا الثقة هو من أخبره بهٰذا الخبر. ثم لما صعد هٰذا الرجل الجبل بنفسه ونظر فإذا به يرىٰ الماء الكثير كما وُصِف له فحينئذ يرتفع اليقين لديه من مرتبة علم اليقين إلىٰ مرتبة عين اليقين لأنه رأىٰ الماء بعينيه، ثم إذا نزل هٰذا الرجل إلىٰ هٰذا الماء ودخل فيه ولامسه وأخذه فإنه يكون في مرتبة حق اليقين لأنه صار مُدرِكًا له بجميع حواسه.

وهكذا الجنة وهكذا إخبار الرب جل وعلا عن الدين وعن الآخرة وعن استحقاقه للعبادة، فإنها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين باختلاف المدركين لذلك. فإذا أخبر الله جل وعلا عن ذلك فيجب أن يكون لدىٰ كل مسلم يقين بذلك، يقين بالجنة، يقين بالنار، يقين باستحقاق الله جل وعلا للعبادة وحده دون ما سواه واستحقاق النبي عليه الصلاة والسلام للرسالة، يقين في وجوب اتباع النبي عليه الصلاة

والسلام وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه.

وهٰذا يحدث للإنسان باليقين الذي هو علم اليقين بوجود الخبر الصادق ولوجود الدلائل علىٰ صحة هٰذا الخبر، ثم هو في يقينه إذا دخل في ذلك وأحسه فإنه يحصل إلىٰ مرتبة أعلىٰ من ذلك وهي أنه أبصر الحق وقرُب منه، أبصر الحق بعين بصيرته ببصيرة القلب، ثم يحصل له نوع يقين آخر لأنه قرُب أكثر وأكثر، ثم إذا دخل في الحق كله وفي الإسلام كافة فإنه يحصل له من اليقين وجملة إدراك الروح لهٰذا اليقين وحتىٰ إدراك البدن للتنعم بهٰذا اليقين ما يكون معه اليقين حقًا، أي يُصبح حقَّ اليقين وهو في الدنيا، فيكون الدين، خبر الله جل وعلا، وما جاء في الكتاب والسُّنة كل ذلك لا يقبل لديه أدنىٰ تشكيك، ولا يقبل عنده أصلًا أدنىٰ رد ولا شبهة؛ لأنه أدركه بروحه وجسده بالإدراك العلمي المحمود وليس فقط تصديقًا لخبر الله جل وعلا، وخبر رسوله ﷺ؛ بل رأىٰ ببصيرته وبقلبه وبعين بصيرته، ثم دخل في العبادة ودخل في الإدراكات فرأىٰ أن كل ذلك حقٌّ كما أخبر الله جل وعلا.

لهٰذا قال جل وعلا هنا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ هٰذا هو الواقع، ولكن أين المكذبون الضالون؟ أين الغافلون؟ هؤلاء لا شك أنهم جَنَوْا علىٰ أنفسهم جناية عظيمة. ولكن اليقين ليس هو علم اليقين ليس خبرًا مجردًا، بل هو يقين، بل هو علم اليقين، بل هو عين اليقين، بل هو حق اليقين، كما أخبر الله جل وعلا هنا لا مِرية فيه، ولا محيد عنه؛ بل هو الحق الكامل من جميع الوجوه.

ثم قال سبحانه بعدها في آخر السورة: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ ولما نزل قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزل قوله جل وعلا: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلىٰ] قال: «اجعلوها في سجودكم» كما في الحديث الذي في «السنن» وفي «المسند» وفي غيره.

وسبق أن ذكرنا في تفسيرنا لهٰذه السورة معاني التسبيح ودلالاته من جهة اللغة ومن جهة الشرع وأن حقيقة التسبيح هو التنزيه، فمعنىٰ سبحان ربي العظيم أي أُنزِّه ربي العظيم عن جميع النقائص والعيوب في ذاته جل وعلا، وفي أسمائه، وفي صفاته وفيما يستحقه جل وعلا من توحيد الربوبية في ربوبيته وفي ألوهيته وفي شرعه وكتابه، وكذلك في حكمته وخلقه وقدره جل وعلا، فينزه الله جل وعلا عن جميع النقائص.

والتسبيح عظيم، وهو مع الحمد بهما يكمل التوحيد، بل لا توحيد إلا بتسبيحٍ وحمد. ومن اقتصر علىٰ التسبيح والحمد وعلم معناها فقد تم له توحيده؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله دائرة ما بين التسبيح والحمد بمعناها الواسع؛ ولهٰذا جاء قول النبي عليه الصلاة والسلام في فضل التسبيح: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ»: والحديث الثاني «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ». ولهٰذا من خفتها فإن الكثير يغفلون عنها.

والموفق من وفقه الله جل وعلا، وليس الأمر بكثرة أو بصعوبة العمل، ولكن هناك أعمالًا يسيرة جدًّا، مع أن ثوابها عظيم جدًّا، لكن لا يوفق لها كل واحد، ولا تسهل علىٰ كل أحد، فيمكن أن يريد واحد أن يسبح لكنه لا يستطيع مع أن الأمر من أسهل ما يكون؛ لأنه حُجِبَ وصد عن ذلك لأسباب أخرىٰ مع سهولة العمل وعَظِم الأجر، فيأتي من يقول: إذا كان العمل بهٰذه السهولة وفيه هٰذا الأجر العظيم، فإذن كل الناس يمكن أن تثقل موازينهم هٰذا صحيح ولكن من يوفَّق إلىٰ هٰذا التسبيح، من يسهل عليه أن يحرِّك لسانه بهٰذا التسبيح إنما هو من أَنِس بالله جل وعلا وبكتابه وبطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام وبذكره جل وعلا علىٰ كل حال. هٰذا آخر تفسير هٰذه السورة سورة الواقعة.

وأسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن أنجاهم من عذابه وأكرمهم. اللّٰهمَّ اجعلنا من المقربين الذين رضيت عنهم فأرضيتهم إنك علىٰ كل شيء قدير. نستغفرك اللّٰهمَّ ونتوب إليك.